مأساة جميلة

أو

مأساة جزائرية

مسرحية من الشعر الحر

عبد الرحمن الشرقاوى

دار المعارف بمصر - 1962

الإهداء

إلى زوجتى

أهدى هذه المحاولة الأولى التى أردت فيها أن أصور حياة رجال ونساء مثلنا ، وأطفال كأطفالنا ، يناضلون من أجل الحرية والإخاء والأمن ، والحب ، وحياة أفضل .

الأشخاص

حسب ترتيب الظهور على المسرح

مصطفى بوحريد : تاجر

أحمد المصرى : صاحب مقهى

عمار : كيمائى شاعر

أمينة : طالبة

هند : خطيبة عمار

جان : شاويش فرنسى

جاسر : قائد منطقة الجزائر ـ عامل

هارون : شاب عاطل

جميلة : طالبة ـ بنت شقيق مصطفى بوحريد

بيير : ضابط فرنسى فى فرقة المظلات

فريتز : ضابط ألمانى فى اللفيف الأجنبى

عزام : ضابط فى شرطة الجزائر

سرحان : شقيق جميلة

سيمون : راقصة فرنسية صاحبة مرقص

أم أمينة - شقيقها الصغير - مواطنون جزائريون - صحفى فرنسى - صحفى أمريكى - طبيب السجن - مأمور السجن - طالبات جزائريات - جنود وضباط فرنسيون ومن اللفيف الأجنبى - أطفال جزائريون - مستوطنون فرنسيون - محام فرنسى - محام جزائرى - قضاة فرنسيون - ممثل الاتهام .

زمن المسرحية : الربيع والصيف من سنة 1956

مكان المسرحية : مدينة الجزائر

الفصل الأول

المنظر الأول

(شارع فى حى القصبة بمدينة الجزائر .. الشارع يبدو متدرجا كالسلالم ملتويا مليئا بالدروب الجانبية .. فى أقصى المسرح ـ فى الصدر ـ يبدو المدخل حيث تظهر فى الأفق أبراج قلعة برباروسة : السجن الرئيسى الكبير .. فى الشارع دكان مغلق ، وبيوت لم تفتح أبوابها بعد . وفى مقدمة المسرح يبدو من على اليمين جزء من مقهى أحمد المصرى . باب المقهى مغلق أيضا ، إذ نحن ما نزال نستقبل أول شعاع من الفجر . الشعاع يملأ المسرح رويدا رويدا . فى الشارع على باب المقهى ، يقف رجل شبه ملثم فى ثياب وطنية وهو يقرع الباب المغلق . الرجل هو مصطفى بوحريد .. كهل فى نحو الخمسين)

مصطفى : يا أحمد ... افتح يا أحمد .

(يفتح الباب)

أحمد : (فى فتحة الباب) بوحريد ؟ أعدت من الجبل ؟

أسليمٌ أنت ؟ لقد كنا قلقين عليك .

مصطفى : أكل الشعبة مجتمعة ؟

أحمد : إلا جاسر فلديه ميعاد آخر فى لجنة مسئولى الجبهة .

مصطفى : فى اللجنة ؟

أحمد : من أجل الإضراب   فغداً إضرابٌ . أنسيت ؟

واللجنة تجتمع الآن لتنظم هذا الإضراب .

أدخل ... أدخل .

(يدفع أحمد المصرى حائط المقهى ، فإذا هو حائط سرى ينفتح كله كالستار عن حجرة سرية ضيقة كأنها منحوتة فى الصخر وفيها عمار وهند وأمينة يكملون حديثهم حول مائدة تحت شعاع مصباح يرسل ضوءا خافتا .. الجو يرسم طابع اجتماع سرى لا ينتبهون لدخول مصطفى أول الأمر إذ أن مناقشة حادة تدور بينهم)

عمار : (فى انفعال) هل يحكم عالمنا هذا ميثاقُ الأمم المتحدة

أم أن المدفع يحكمه والطلقة تبطش بالكلمة ؟!

أمينة : لا تحلم يا عمار بعدل يمنحه الأقوى بعد !

عمار : (مستمرا) خطفوا الزعماء الخمسة ! .. يا للعار !

أحمد : يا عمار !

هند : (بألم) أجل خطفوا الخمسة .

أحمد : يا هند !

أمينة : فليكتم كل فتى يأسه .

لن يفرض قانون الإنسان سوانا نحن متى فزنا

عمار : لكنهم قبضوا اليوم على ألف ... ألف منا

أمينة : فستنبت بعدهم الآلاف .

عمار : وليس لدينا أسلحة .

أمينة : فلننزعها من أيديهم .

مصطفى : عمار ! .. أهزتك الضربة ؟

عمار : بوحريد ؟ أعدتَ ؟

أمينة : صباح الخير ..

هند : متى عدتَ ؟

عمار : كيف الإخوان على الجبل ؟

مصطفى : الكل هناك شعارهم سنرد الضربة ضعفين

ما زلنا نملك أن نحيا .

هند : ما زلنا نملك أن نضرب

أحمد : (لهند مشيراً لعمار) قولى لخطيبك كى يهدأ

عمار : من أول أمس مذ خطفوا بن بيلا والزعماء معه

والناس تراهم فى الشارع كالمسحورين ! الشعب يدمره الخوف

أحمد : (مقاطعا) وما يدريك ؟ أأنت الشعب ؟

أمينة : أنت الخائف لا الشعب !

هند : (بغضب) أمينة !

أحمد : ماذا تعرف يا عمار عن الشارع

وحياتك فى معملك النائى أو فى الشعر ؟!

عمار : يا أحمد ! لا ، فأنا أحيا فى قبضة أظفار الواقع

أرأيت الشارع بالأمس ؟

هند : أسكت ... أسكت يا عمار

أحمد : يا ثرثار !

مصطفى : إن الإخوة فى الجبل ينوون الرد على عجل .

عمار : (بضيق) لكنهم محصورون ومحتاجون لأسلحة

ولأدوية ولأطعمة ولأغطية

مصطفى : يا عمار ! فى صوتك إذعان يائس لكأنك مهزوم !

(همهمة سخط من عمار وهند)

أحمد : دعوا بوحريد يقل .

أمينة : ليقل بوحريد .

مصطفى : بوحريد يقول القوة تنبع من قلب الإنسان .

عمار : وبعد !

هند : أسكت أنت ...

عمار : ماذا يا هند ؟

مصطفى : خطفوا الزعماء ؟ إذن فلنخطف منهم أثمن ما يُخطف

عمار : أترانا نسرق يا بوحريد ؟

أحمد : (بضيق) أتراك تعود لتتفلسف ؟

أمينة : أسكت يا أحمد   دع بوحريد يقل

مصطفى : بوحريد يقول : لا تترك غيرك يسرق منك شجاعة قلبك ..

عمار : الناس يواجههم فى الشارع   فى الفلوات   سؤال فاجع :

ماذا نعمل ؟

سؤال يجثم مثل الهول على طيبة !

أحمد : ما هذا الهول ؟ وما طيبة ؟

عمار : (مستمرا) والجيش هنالك فى مأزق ...

أمينة : (بضيق) ليقل بوحريد إذن

مصطفى : بوحريد يقول لكم : من عاش بهذا اليأس ، سيتمزق .

عمار : أنا لم أيأس لكن قل لى أنت وأنت حكيم ... قل

أين الباخرة المشحونة بالأسلحة ؟ أما غرقت ؟

مصطفى : لا لم تغرق ، ليس لدينا نبأ عنها بعد

أمينة : لماذا تصرخ فى يأس ؟ هبها غرقت

أحمد : ليقل بوحريد ..

مصطفى: بوحريد يقول أحلك ساعات الظلمة هى ساعة ما قبل الفجر

والفجر يجئ على قدر .

أحمد : (بفرحة) قل أيضاً من فيض الحكمة

فكلامك حلو والله

مصطفى : بوحريد يقول لكم : سنقاتل حتى بعظام الموتى !

فعدو الله وإن حاصرنا يخشى الزحف ولا يقوى

ولقد أنهكه الوضع الراهن أكثر مما أنهكنا

(ثم لعمار)

لو كنت رأيت جنودهم فى سفح الجبل كأنهم هملٌ ملقى ؟

الخوف يذيب ضراواتهم واليأس يمزقهم إربا !

أما نحن ، ففوق القمة نكشف كل مواقعهم

عمار : وكأنا آلهة عطشى !

أحمد : ليقل بوحريد

مصطفى : بوحريد يقول : اصنع ما أنت به أدرى ؟

أسلحة من حلف الأطلنطى تشحن للأعداء

أمينة : (بلهفة) متى ؟

مصطفى : اليوم مساء وقت المغرب

أمينة : (بحسم) فلنمنعها !

أحمد : خمسون قطاراً ـ فيما أعلم ـ أو سبعون ..

مصطفى : يا أحمد لا ! . بل أربعة !

أمينة : فلنمنعها

مصطفى : علينا نحن هنا فى القصبة ألا نمنعها

أمينة : لندمرها !

هند : فلننسفها !

أحمد : (وهو يفكر) بل نأسرها
فلنغنم ما فيها حتى تأتينا المركب بالشحنة

عمار : بل نأسرها ؟! وبمن ؟ قل لى أحمد يهذى !

مصطفى : (بحسم) فليمسك كل أعصابه !

أم هان الأمر فأصبحنا يتهم الواحد أصحابه !

أمينة : لم لا تـُـنسف تلك الشحنة فى موضعها ؟

هند : فلننسفها فى موضعها

مصطفى : مرحى

عمار : مهلا

أحمد : ماذا أيضاً ؟

عمار : (بخطورة) ستثور شظايا هائلة ولسوف يموت كثيرون

أحمد : لكن الضربة تستأهل

أمينة : فسترفع من روح الشعب

أحمد : وتميت فرنسا بالرعب

عمار : ويموت الناس بلا عدد !

أمينة : سنوجه إنذاراً للناس قبيل التفجير بوقت

يكفى لنجاة جميع الناس من الموت !

أحمد : إلا الحراس ؟

أمينة : هذا تدبيرى يا أحمد

مصطفى : ستكون أمينة مسئولة

أمينة : (لعمار) أنا المسئولة عن أمنك ؟

عمار: (بضيق) أنا لا أتحدث عن أمنى الشخصى ولكن عن غيرى !

لماذا يتهم الإنسان أخاه إذا اختلفا فى رأى ؟

سيكون حريق كالطوفان يهدد حتى هذا الحى !

فلنرم الألغام بعيداً

مصطفى : لا بأس بأن نبعد ميلا إن كان يريحك هذا الأمر !

هند : ميل ! قد تنجو أسلحة من شحنتهم

عمار : لن ينجو شئ إطلاقا فلنرسم خطتنا الآن

أمينة : (لعمار) سأزورك بعد المدرسة في معملك السرى
والآن أقوم لمدرستى

هند : فليُـخطر جاسر بالخطة ليغيرها إن لم ترضه

أحمد : (لمصطفى) أيبقى جاسر يتنكر ؟ وباسم آخر يا شيخ !

مصطفى : فلتصبر ! فالصبر سلاح أيضاً فى أيدينا

أحمد : أنعم بالصبر !

أمينة : (فجأة لمصطفى بوحريد) ما قولك فى ضم جميلة ؟
قد كنت أرشحها من قبل وجاسر كان يؤيدنى

مصطفى : لتجرب فى يوم آخر فمهمتكم ليست سهلة

(أحمد يعالج باباً جانبياً على اليسار يفضى إلى سرداب ويخرج منه)

عمار : إن جميلة فى رأى عضو ممتاز نكسبه

هند : لنبحث هذا فيما بعد

(يعود أحمد من السرداب)

أحمد : السرداب نظيف جداً

(يخرج مصطفى)

مصطفى : سيروا من خلفى وليحرسنا الله بعين رعايته

(تخرج وراءه أمينة)

عمار : يا ربى ! ثبت قلبى فأنا أشقى من أجل الراحة يا ربى !

هند : عمار يعود إلى الشعر

أحمد : (يدفعه) أسرع ، أسرع ! لا تتفلسف .

(هند تجذب عماراً من يده ويخرجان ويغلق أحمد باب السرداب ثم يسد الحائط السرى)

المنظر الثانى

(نفس الشارع السابق بعد مرور ساعات النهار ، باب المقهى مفتوح وأمامه الكراسى وموائد جلس إليها بعض رجال . وهارون يقعد متشاغلا بقراءة جريدة بينما أحمد المصرى يحمل شاياً إلى مصطفى بوحريد فى دكانه ويقعد معه على دكة أمام الدكان المفتوح حيث ترى أثواب الحرير معروضة .. شمس الأصيل تلقى بأشعتها الشاحبة على الشارع الذى تستطيل فيه الظلال . وأبراج قلعة برباروسة تبدو بوضوح من بعيد حيث تتخذ السماء من وائها لونا ورديا يختلط بالزرقة ، والغمام الداكن يزحف على كل شئ مؤذنا بهبوط المساء ، والجبال تبدو من بعيد .. أمام أحد الجدران فى الشارع يقف شاب جزائرى فى ثياب عامل يلصق إعلانات كتب عليها بالعربية والفرنسية ((مكافأة مليون فرنكاً لمن يقبض أو يساعد فى القبض على جاسر قائد الإرهابيين)) ... الشاب الجزائرى يقوم بعمله فى حراسة جان وهو شاويش فرنسى تبدو عليه الطيبة التى يخالطها الضجر - جان يحاول أن يتودد إلى الشاب فيتمسح به . وجان هذا هو أبعد الناس عن هيبة المهمة التى يكابدها)

(جان ينظر إلى الإعلان نظرة خاطفة وكأنه قرأه مائة مرة .. وفى الحق أنه صنع هذا من قبل أكثر من مائة مرة .. ثم يتجه إلى العامل الجزائرى الذى اتخذ اسم مبروك .. جان يتحدث بتودد ملحوظ وهو أحياناً يحلم)

جان : مليون يا مبروك ؟؟ ما هذا ؟

مبروك : نعم مليون !

جان : كم تساوى هذه المليون ؟ قل لى

مبروك : رأس جاسر

جان : لا ! .. بالدولار

مبروك : أضمنت أن تأتى بجاسر   فأخذت تحلم أن تهاجر
كى تغامر فى شيكاغو ؟

جان : (مازحاً) لا يا حمار !

مبروك : ماذا تقول ؟

جان : (متلطفاً) أنا أضاحك صاحبى

مبروك : ومتى يصاحب حارسٌ منكم ضحيته السجينة

(مبروك يلصق الإعلانات هنا وهناك ببطء شديد وعيناه على جان)

جان : (يضيق) أولا ! الضحايا والسجون ورنة الحقد الحزينة !
لنعد لما كنا نقول ؟ أنسيت ما كنا نقول ؟
أنسيت أنى قلت يوماً إننى أنوى الرحيل

لأعيش أيامى التى بقيت ، هنالك فى فرنسا

بين المراعى والحقول   على مهاد طفولتى

هناك فى الوادى الخصيب

وادى اللوار   حيث الطلاقة والأمان

وكل ما حولى أليف لى حبيب

والأرض مترعة بألوان الثمار !   فأنا هنا فى وحدتى

مبروك : (يقاطعه) هذا عجيب   يا جان كلكم هنا ينوى الرحيل

فتحلمون ، وتحلمون

لكنكم لا ترحلون   بل ، تـُطردون

أو تـُدفنون هنا بلا شرف يعزى فاقديكم

(مبروك يتجه إلى دكان مصطفى)

جان : أما أنا فلسوف أرحل لا محالة سوف أرحل

فأنا غريب ها هنا ، مهما أقم فأنا غريب !

ويكاد يفتك بى هنا السأم العقيم

ويغيض رونق عمرى المنبوذ فى ندم عظيم

مبروك : عجباً .. أتعرف ما الندم ؟؟

جان : لم لا ؟؟ أتحسب أن قلبى قـُد من صخر أصم

قد كنت سجاناً فهزتنى البشاعة فى السجون

ونقلت للسجن الكبير

أنظر هناك .. ألا تراه ؟؟   أوَلا ترى أبراجه الصماء ؟؟

مبروك : تعنى برباروسة .

جان : (مستمراً) ورجوتهم أن ينقلونى فاستجابوا للرجاء

مبروك : لكنهم لن يتركوك تفر من هذا الجحيم

لن يتركوك تعود من أرض الجزائر سالماً ..

(يحاول لصق الإعلان على دكان بوحريد)

مصطفى : مبروك لا تلصق على الدكان إعلاناً ! كفى !

(هارون من على المقهى يترك الصحيفة ويتأمل)

أحمد : ماذا ؟؟ أ إعلان جديد ؟   مليون .. ماذا ؟؟

هذا بعملة مصر ألف جنيه ..

هارون : حقا ؟؟

مصطفى : فى كل يوم يرفعون الجائزة .

هارون : لن يوقعوه فإنه بطل عظيم   أنا أعرفه !

(هارون يعاود قراءة جريدة بينما يقول مصطفى لأحمد)

مصطفى : لكلامه هذا رنين خادع مثل النقود الزائفة ؟

أحمد : هذا الغلام محير يا مصطفى ! كلماته .. كلمات أبطال كبار

وكأنه أيضاً بطل !

لكنه بالرغم من هذا يثير من الغبار .

على سلوك القادة الأبرار .. ما لا يُحتمل

وكأنه متطرف عنهم ؟

(مبروك ما زال يعمل فى لصق الإعلانات وجان يحرسه ثم يختفيان فى أحد الدروب الجانبية)

مصطفى : أنا ليس تخدعنى حماسة ذلك الصنف المزيف .

لِمَ يطعن الزعماء ثم يعيد نفس كلامهم ؟

فيما إذاً هذا التطرف ؟؟

أحمد : قد كان معتقلاً ، وفر !

مصطفى : أعرفت إنساناً سواه نجا سليماً هكذا من معتقل ؟!

أيفر من معتقلاتهم أحد ويبقى هكذا وسط المدينة فى سكينة

أحمد : كم عذبوه !

مصطفى : لكنهم لم يتبعوه !! بل إنهم تركوه يسرح بيننا

ويثير شبهات على زعمائنا باسم التطرف

فكر لتفهم يا أخى سر التطرف !

أحمد : أنا لست أفهم يا أخى .. أنا لست أعرف

(يمر رجلان .. يتوقف أحدهما لقراءة الإعلان فيشده الثانى)

أحمد المصرى: سيرا بغير تلكؤ وتماحك وتباطؤ ماذا تراك ستستفيد ؟

أحد الرجلين : (وهو يشد الإعلان ويخرج مسرعاً وراء زميله)

أما أنا فلسوف ينفعنى الورق ؟

(يظهر جان)

جان : ماذا بحق الله يجرى ها هنا فى غفلة منى ؟؟ أنا لا أغفل

مبروك ألصق غيره . ألصق على الورق الممزق !

ألصق هنا وهناك .. ألصق !

أحمد المصرى : والله أنت مغفل !

(يعود مبروك ليصلح الإعلان الممزق ووراءه جان وعندما يفرغ من مهمته خلال الحديث التالى يعود إلى أحد الدروب ووراء جان دائماً)

هارون : (ينتفض وهو يلوح بالجريدة)

أتصدقون ؟ هذا كلام لا يصدق ؟

ماذا ؟ هل اعترف بن بيلا والصحاب

أتراهم من أجل هذا أوقعوا ألفين منا ؟!

أحمد : (بانفعال) لم يقبضوا إلا على ألف فحسب .. يا هباب !

هارون : هذا كلام فى الجريدة !

مصطفى : لا تروج بيننا هذا الكلام

أحمد : إنا لنعرف كيف يُكتب

مصطفى : وبمن يُروَج أو يردد من أجل تشويه البطولة ، والمثل !

هارون : عجباً وما يعنيك أنت

مصطفى : أنا ؟ تأدب ! ولتحترم شيخوختى

أحمد المصرى : هارون قم من دربنا لِمَ أنت منحط هنا طول النهار

ومن صبيحة ربنا ؟

قم يا أخى من قهوتى اذهب إلى درب اليهود !

هارون : يا أحمد المصرى ، ما بك ؟! هل أسأت إليك ؟

أحمد المصرى : أقعد فى أدب لا تنحشر فى شغل غيرك

هارون : يا أحمد المصرى .. أمرك !

أحمد : اذهب فقبل رأس عمك مصطفى بوحريد ... قم

هارون : لكنه بدأ الشتيمة يا أخى !

أحمد : أنا قلت قم   صالحه يا ابن الموسوية

(يجره من يده إلى دكان مصطفى بينما يقبل أولاد فيقفون أمام الإعلان)

ولد : مليون   بالأمس كانت نصف مليون .

الثانى : غداً تغدو ثلاثة !

(يظهر مبروك وجان)

الثالث : أنا لست أعرف كيف أقرأ

الثانى : ما شكله المليون هذا ؟ كيف يُكتب ؟

الثالث : قل كيف يُحسب ؟!

(يخرجون ضاحكين والمغرب يزحف)

أحمد : (لمبروك) لدىَّ شاى مفتخر .

أتريد شاياً أم تفضل قهوة مصرية مضبوطة ؟ يا سيدى مبروك

مبروك : (ضاحكاً) شكراً ألف شكر !

(رجل يقوم من على المقهى ويخرج من أحد الدروب ومعه رجلان)

الرجال : مسيتَ بالخيرات يا مبروك .

مبروك : مسيتم بخير

جان : (لنفسه) وأنا ؟ ألا أحد يوجه لى كلاماً ، أو سلاماً ؟؟

أنا يا صحابى لست صاحب ذلك الإعلان

لو أن صفقة ذلك الصحفى من تكساس تمت ما قعدت هنا

ليوم واحد

مبروك : من هذا الصحفى من تكساس ؟

جان : من ؟ أنسته هو صاحب اللاكى سترايك أتذوقها ؟

مبروك : أنا لا أدخن

(جان يشعل سيجارة وينفث دخانها)

جان : هو من يريد شراء بيتى ، هل ذكرته !

إنى حكيت لك الحكاية مرتين

مبروك : وبكم إذن ستبيعه يا جان كل شقاء عمرك ؟

جان : وبكم تظن ؟

مبروك : بألف دولار ؟

جان : لا ! بل بخمسة آلاف دولار .. ونصف !

مبروك : لكن بيتك ليس قصراً

جان : عجباً .. أيدهشك الثمن ؟

لكننى أنا فيه أضخم من أخى لاكوست فى أبهاء قصره !

أم يا ترى كم يرتضى الإنسان من ثمن لكل شقاء عمره !

مبروك : الموت يا جان العجوز

(يحاول أن يخرج من جيبه منشوراً يلصقه على الإعلان ، فيراه جان)

جان : مبروك هذا لا يجوز !

احذر ، فقد حاولت هذا فى الصباح ، فلم توفق .

ولئن رجعت فأنت تدفعنى إلى ما لا أريد !!

عدنى بأنك لن تحاول

أنا لست يا مبروك بالرجل المغفل

أنا لا يغافلنى الذين يغافلون الآخرين   حتى النساء ..

مبروك : (كالمداعب) لكن نساءكم يغافلن الرجال الأذكياء .

جان : أنا ؟ لا ! فلى امرأة أطالع سرها وأنا بعيد

حسناء .. لكن لا تحيد

وتكاد يا مبروك يا ولدى لشدة هيبتى

تقعى أمام ملابسى فى غيبتى !

مبروك : (ضاحكا) أتحبها ؟

جان : عاشرتها عشرين عاماً يا بنى !

ماذا ستحمل فى الجوانح بعد عمر مثل هذا ؟!

هارون: (لنفسه) هارون مَن مبروك هذا ؟ من يكون ؟ وكيف جاء ؟

إنى لأذكر أن منظره أليف لى !

(بصوت مرتفع وهو يضع الصحيفة التى كان يقرأ فيها)

أسمعت يا بوحريد أخبار الوباء ؟!

مصطفى : سمعتها .. لكنها كذب وتزييف .

هارون : وكيف ؟

أحمد : أجل هراء

هارون : أنا واثق منها

مصطفى : وكيف وثقت أنت ؟ أأنت جئت من الوباء ؟!

أحمد : هارون قم من قهوتى ، أو كف عن نشر الإشاعة ..

هارون : ليست إشاعات ولكنى سمعت من الإذاعة

وقرأت فى صحف المساء

أحمد : (بضيق)

هذا كلام فارغ من أصله   وأنا أقول لك الحكاية كلها

مصطفى : يا أحمد المصرى لا تأبه به

هارون : فلنسأل الشاويش

أحمد : سل أنت ، رُح له ! أما أنا فملافظى لا تستحل ملافظه

(أذان المغرب ، ومصطفى وأحمد يتبادلان نظرات ذات مغزى خاص)

مصطفى : هذا أذان المغرب   الله أكبر

(هارون ينهض ويتجه إلى الشاويش)

هارون : يا سيدى الشاويش ما خبر الوباء

(يمر ولدان .. أحدهما يقرأ الإعلان فيشده ليمزقه ، جان يهب منتفضاً)

جان : لا يا ولد ! لا يا ولد !

الولد : (وهو يجرى) فلترحلوا عن الجزائر ..

زميله : ما عاش مَن سلـَّم جاسر

جان : إنى لأعجب فى بلادكم الغريبة للصغار !

مبروك : (لجان) لكنهم ليسوا صغاراً بعد .. إنهم كبار !

جان : (صارخاً للولد الآخر) يا عفريت .. اذهب !

مبروك : (مسترسلاً) أيظل طفلا من تعذب !

مصطفى : (مهمهماً) يا رب فلترجع أمينة سالمة

إنى ليزعجنى السكون ! متى يدوى الانفجار

متى ؟ لقد راح النهار !

هارون : يا مصطفى أنا لست أفهم يا أخى لِمَ أنت مبهم ؟

فيما تهمهم دائماً .. فيما تهمهم ؟

لِمَ لا تقوم لكى تصلى هل سهوتَ عن الصلاة

مصطفى : ماذا يهمك أنت .. هل تحصى علىَّ تحركاتى

يا ابن المرابية الجميلة ؟

أحمد : بل نحن نعجب منك يا هارون كيف تعول أهلك ؟

وأراك طول اليوم منحطاً على المقهى بثقلك !

من أين تأكل يا أخى ؟ مِن عندهم ؟ أم يا ترى من إرث أمك ؟

(صوت انفجار مفاجئ يدوى من بعيد)

جان : صوت انفجار

هارون : صوت انفجار ذخيرة

مبروك : من أين هذا الانفجار ؟

(يقترب من مصطفى وأحمد المصرى بينما يصعد جان متأملاً)

هارون : (هامساً مهموماً) أتراهم نسفوا القطار بما عليه من الذخائر ؟

جان : (لنفسه) هو جاسر لا ريب ذئب القصبة الشرس المغامر !

مبروك : (من مكانه) ماذا ترى يا جان ؟

جان : قد نسفوا المحطة ! هل عميتَ ؟ أما ترى سحب الدخان !؟

هارون : أتظنهم نسفوا المحطة كلها ؟

أحمد : (لمصطفى بفرح) نسفت قطارات الذخيرة ؟ فليعش عمار .

جان : لِمَ كل هذا ؟! هل لهاتيك المآسى من ختام ؟؟

هم هكذا فى كل يوم عندما يأتى المساء

الأرض تغمرها الدماء ! هل ذاك ما يرضى المسيح ؟؟

(بأسف)

تلك الذخائر

كانت ستنجد جيشنا المحصور فى جبل الـ .. نسيت اسم الجبل !

مبروك : (مقاطعاً باستخفاف) فى أحد الجبال ! ماذا يهم اسم الجبل ؟

جان : من ذا يدبر كل هذا بعد أن قبضوا على زعمائهم ؟

مبروك : (مشيراً إلى اسم جاسر فى الإعلان) هذا البطل

جان : لو قلت هذا يا غبى أمام غيرى ما سلمت !

أنا لا أحب جميع هذا يا إلهى .

مبروك : (لنفسه) لا تحبه ؟

(يدخل عمار من أحد الدروب شاحباً مضطرباً .. ويهوى بسرعة بجوار مصطفى بوحريد .. مبروك يلتفت إليه مستطلعاً)

عمار : الصفقة الكبرى انتهت والكل فى خير

مبروك : (لنفسه) عظيم !

مصطفى : (لعمار) لِمَ أنت مضطرب إذن ؟؟

هارون : (يقبل عليه) عمار ما بك ؟ هل جُرحت ؟

مصطفى : وما به ؟

هارون : أو لم تلاحظ وجهه وشحوبه

أحمد : فيم انشغالك يا أخى بشحوبه ؟

أما برود لم أشاهد مثله أبداً ولم أسمع بشئ مثله !

هارون : (يتجه لعمار بحنان) قل يا أخى عمار ما بك ؟ ما أصابك ؟

أحمد : (لهارون الذى يحاول أن يتحسس عمار)

هارون ! ارجع يا ولد

هارون : مهلاً ! أتحسبنى صبياً فى محلك ؟

أحمد : (يدفع هارون) قلت ابتعد

(يعانق عمار) يا مرحباً بك يا أخى عمار .. أهلا

عمار : مرحباً بك ألديك ماء ؟

أحمد : ماء ورد !

(يذهب إلى المقهى مسرعاً ليعود بكوب ماء)

جان : (ينظر إلى عمار) ما باله هذا الفتى ؟

مبروك : ما باله ؟

جان : لكأن كل دمائه غاضت ! تأمل كيف يشحب لونه !

مبروك : لِمَ لا ؟! أليس الفقر يستل الدماء من العروق !

جان : مبروك لا تشغل بأفكار كتلك

وافرغ إلى العمل الذى يعطيك خبزك

(جان يتمشى إلى أحد الدروب وهو يحسب أن مبروك وراءه)

مصطفى : (لعمار بضيق) قم

(مبروك يتجه إلى عمار ويتظاهر بتثبيت الإعلانات على الحائط)

مبروك : (لعمار) ماذا دهاك ؟!

عمار : أنا لم أخض من قبل معركة الطريق ! كانت مخاطرة فظيعة

مبروك : بل قل مغامرة بديعة

عمار : أنا لا أراك ! ولست أسمع أى صوت ما سوى رجع الزلازل !

أنا لا أرى إلا الدخان الآن والأشلاء ..

مصطفى : (مقاطعاً برفق) حسبك يا بنى !

اذهب تصاحبك السلامة ! ولتنم

فستستريح إذا هجعت إلى فراشك .. قم ونم

عمار : أنا أستريح !! وكيف ؟!

(يربت مصطفى على كتفه ويدفعه برفق)

مبروك : أزجى إليك تهانئى باسم الجميع والآن قم

عمار : السلام عليكم .. (ينصرف)

مصطفى : (لنفسه وهو يراه منصرفاً) هذا البرئ العبقرى !!

مبروك : (بسرعة) سلم أمينة ما لديك جميعه

مصطفى : لكنما النشرات قد حزمت لها فى ربطتين كبيرتين

مبروك : وإذن فسلمها الأمانة دفعتين

مصطفى : قد كان أولى أن تكون أمينة رجلاً وعمار فتاة !

أستغفر الله العظيم

مبروك : هو ما يزال الشاعر القديس يرهقه تراب المعركة

مصطفى : هذا صحيح .. فالمعارك شائكة

(يقبل جان فيرى مبروك وهو يهمس لبوحريد)

جان : (يصرخ) مبروك .. يا مبروك .. ويحك أين أنت

مبروك : أنا ذا ...

جان : (بلهجة آمرة مفاجئة) تعال هنا .. وقل لى أين كنت !
أو لست تعرف أن هذا لا يجوز !!
أترى يشوقك أن تكون نزيل قلعة برباروسا ؟!

مبروك : بالطبع لا ! لا يا عجوز !

جان : (فى غضب مفاجئ لهيبته) أنا لا أخاطب هكذا .

مبروك : ماذا دهاك ؟

جان : هب ضابطاً ما جاء ثم رآك مرتمياً هناك !

مبروك : قل أنت يا شاويش

جان : سوف يعاقب الشاويش نفسه !

مبروك : أتخاف ؟

جان : يا مبروك كلمنى بأسلوب مهذب !   أنسيت من أنا ؟!

مبروك : كدت أنسى !

لما رأيتك أيها الشاويش تفضى لى بضعفك منذ حين !

جان : ضعفى ؟! تأدب ! .. أنا لا أخاطب هكذا

مبروك : (مستمراً) لكن شيئاً ما سيبقى بيننا

شئ فظيع ليس ينسى

فأنا من البلد الشهيد !   وأنت ؟ رب من فرنسا !

جان : (مهتزاً من كلام مبروك) لا تهذِ بعد .. وعد إلى العمل الذى يعطيك قوتك

مبروك : تعنى الفتات ..

جان : ألصق هنا .. (مشيراً إلى المقهى)

أحمد : أبعد عن المقهى فقد شوهته بالملصقات

(جان يقعد على كرسى من المقهى ثم ينادى بتؤدة)

جان : مبروك . اسمع يا بنى !

ألا ترى أن الفضاء يشف فى هذا السكون ؟

الليل يهبط والظلام !   لكنه ليس السلام !

اسمع لأصوات المساء   للصمت وسوسة رهيبة !!

لِمَ لا تكلمنى .. تكلم يا بنى ..

مبروك إلا أنت ! لا تصمت ! فصمتك لا يطاق !

مبروك : بل أنت تأمرنى فأفعل ما تريد   بلا مزيد   فما تريد ؟

جان : مبروك ... لست أنا عدوك

يا أيها المجنون لست أنا عدوك !

لِمَ لا تكلمنى كما يتكلم الإنسان للإنسان !

مبروك : بل ليس ما بينى وبينك يا عجوز هو الكلام

جان : (برقة وحزن) أهو الخصام !

مبروك : مهما يكن يا جان من أمر ؛ فليس هو السلام !

جان : حقاً فليس هو السلام ! يا ليته كان السلام !

مبروك : (لجان من بعيد) ماذا ترى أذناك

تلتقطان من هذا السكون

إلا صليل القيد من خطواتنا ؟

إلا صدى الأنات من أعماقنا ؟

جان : مبروك لا تنظر إلىَّ بكل هذا الكبرياء

أنا لست إلا حارسك !

وغداً سأحرس عاملاً ما فى مكان ما سواك !

مبروك ! لست أنا الذى يغتالكم فى أرضكم !

مبروك : أو لم تكن من قبل سجاناً تعذب من تشاء

أو لم يكن هذا العذاب وسيلتك

لتنال ترقية وتظفر بالرضا ممن يعيب كفاءتك ؟

جان : إنى لأقسم بالمسيح ، بكل آلام المسيح
أنا لم أعذبهم هناك ولى خيار

مبروك : أنا لست أفهم بعد هذا الاضطرار
أيعذبونك أنت أيضاً لو رفضت أو امتنعت ؟

جان : دعنى أقل لك إننى وسط الأنين قد اكتشفت حقيقتى
أجل اكتشفت حقيقتى وسط الأنين
حيث الرجال الصامدون .. يُعذبون ، فيرفضون
هم يرفضون الشر والمأساة والألم المبرح ، والقضاء
هم يرفضون بلا تردد !
وهناك حيث يعربد الجانى على جسد الضحية
وتحمل الإنسان للآلام فوق تصور العقل المحدد !
حيث الدماء تسيل من بدن المعذب فى غباء
وبلا توجع أو تضرع
وهناك فى برج الفظائع والفجيعة والمآسى البربرية
فى ذلك السجن الذى قد كان قلعة برباروسة حامى المسيح
حيث المسيح يعود يُصلب من جديد كل يوم ألف مرة !
هناك فى هذا السعير .. أنا اكتشفت حقيقتى وخديعتى !!

مبروك : (باهتمام) ماذا اكتشفت هناك فى هذا السعير

جان : أنى السجين أنى أسيرٌ مستباحٌ ، مهدرٌ ، وبلا ضمير

أنى حقير مستذل لا بطل أنى أعيش بلا إرادة

مبروك : من أجل ذلك أنت جندى تدلله القيادة ؟

جان : (مستمراً) وهناك كم ساءلت نفسى وسط أنفاس الضحايا ،

وعيونهم ترنو كأن بها شواظاً من دماء :

هل ذلك ما يرضى السماء ؟ هل ذاك ما يرضى المسيح ؟

وإذا الجواب هناك مسطور على تلك الوجوه

فى صمتها ذاك الكريه

فى رفضها القاسى ونظرتها المحجرة الجسور كحطام بركان يثور

وكأنما هى لعنة تنصب فوق رؤوسنا وقلوبنا

نحن الذين تكاد تغرقنا الخطايا كلنا

(منهاراً)

أواه إن الحاجة استولت علىَّ ودمرت روحى ، فصرت بلا ضمير !

مبروك : وإذا أعِدتَ غداً إلى تلك الوظيفة .. كيف تصنع ؟

هب أنهم منحوك ترقية لترجع ....

جان : (يقاطعه بحزن عظيم)

أعرفت معنى أن تجوع صغيرة لك حين لا ذكرى لديك

ولا طعام ولا أمل

أعرفت هذا اليأس يوماً ؟! هل عرفته ؟!

ألديك أطفال صغار وامرأة ،

ومرارة السن التى تتجاوز الخمسين فى عمر يضيع بلا ضمان

ولا أمان وبلا ابتسام ولا دموع ؟!

مبروك : فلو أنهم منحوك ترقية لترجع ، ما ملكت سوى الرجوع !

ولعدت تصنع كل أنواع البشاعة يا رجل !

ولبعت كل مقدساتك وقتها باسم الضمان أو الأمان !

وظللت تصرخ بعدها . أنا ضائع وبلا ضمير !

أنا الذليل .. أنا الحقير !

جان : لا لا ! كفى ! أنا قلت لا ! لا أستطيع

مبروك : الحاجة امتلكت قلوب الناس تجتث الفضائل كلها من جذرها

جان : الحاجة العمياء والقلق المبرح والمطامع والدنس !

مع كل ذلك فالفضيلة ما تزال حقيقة لم تنطمس !

مع كل ذلك ليس حتماً أن يخون المرء خير مشاعره

ليعيش منبوذاً تطارده خديعة حاضره

يقتات من خبز الندم

لا يا صديقى .. لم تزل فى هذه الدنيا قيم

(يخرج من أحد الدروب ووراءه مبروك .. وكان قد دخل أثناء كلامه رجل يضئ الفوانيس)

(الرجل الذى يضئ الفوانيس يتأمل الإعلان ويفكر .. وهو ينظر فيمن حوله)

أحمد : (يهمس للرجل) يا عم رُح .. ماذا تدبر ؟

رُح إنهم لا يعرضون سوى نقود زائفات .. لا تفكر !

(الرجل يضئ فانوس الشارع ويخرج فى خجل بينما تقبل أمينة من صدر المسرح وعليها العباءة الوطنية ثم تتجه إلى دكان مصطفى بوحريد فيسرع هارون الذى كان يتجول هنا وهناك ليتحرش بها) .

هارون : أهلا أمينة

أمينة : أنا ـ يا معاذ الله ـ لم أعثر بمثلك فى المدينة !

هارون : (بلا مبالاة وبإلحاح)

لِمَ تلبسين عباءة .. من أين جئتِ بها ؟! أرُحتِ بهذه للمدرسة !

أمينة : رُح يا سخيف

هارون : (يضحك بثقل) ها .. ها .. وأين إذن جميلة !

أحمد : يا ابن الثقيلة !

هارون : (غاضباً) أنا يا أخى عندى لها شئ يقال !

أحمد : (يجذبه من قفاه ويشده ناحية القهوة)

لتقله لى أنا .. قل كلامك للرجال

هارون : (وقد بوغت بحركة أحمد أمام الفتاة يقول متلعثماً فى احتجاج)
ما ... ما ...

أحمد : أنا لا أحب المأمأة !
إنى لأقسم بالطلاق لئن رجعت لمثلها فلسوف تـُضرب بالنعال
حتى تقول أنا امرأة !

مصطفى : هو ذا الحرير لكن تعالى بعد حينٍ فلدىَّ ثوب آخر

(يعطيها ربطة كبيرة فتخفيها تحت عباءتها الوطنية وتخرج مسرعة من أحد الدروب)

هارون : هذا الفتى مبروك من هو ؟

أحمد : فرخ جان !

هارون : من أين جاء ؟ وكيف جاء ؟

من أى أنحاء الجزائر   من أى داهية وقع ؟

أحمد : قل من جهنم يا لكع !

من طور سيناء من الأعراف ، من أقصى السماء السابعة !

(ثم ملتفتاً إلى مصطفى كمن يستنجد به من إلحاح هارون)

يا مصطفى .. أرأيت إنساناً لحوحاً مثل هذا طول عمرك ..

هارون : أو لم يثر هذا الفتى مبروك فيكم أى شك

أحمد : لو شُـك قلبك لاسترحنا من شكوكك للأبد !

مصطفى : (من مكانه) ماذا يثير شكوك كلب الصيد ؟

(متطلعاً إلى مدخل القصبة وصوت أقدام عسكرية تقترب)

أحمد : شش ... دبيب أقدام العساكر

(تمتد يد من أحد الدروب فتقذف بمنشورات تملأ الأرض)

(يدخل ضابطان من الصدر أحدهما فرنسى من المظليين واسمه بيير والآخر ألمانى من اللفيف الأجنبى واسمه فريتز ...)

بيير : (بخفة وهو يشير إلى إعلان المكافأة بإغراء)

أترون ؟ مليون لرأس واحدة !

فريتز : (هامساً) كم ذا تساوى رأس قائدنا إذن ؟

بيير : ثمن الرصاصة يا فريتز أم كم تظن ؟

ثمن الرصاصة ليس غير !

(فريتز يلتقط منشوراً ويقرأه)

الملازم : يا سيدى الميجور بيير !

بيير : عد أنت .. اذهب بالجنود .

فريتز : أقرأت هذا ؟ (يعطيه المنشور)

بيير : (يقرأ المنشور) يا أيها الشعب الأمين   اضرب غداً

فليضرب التجار والعمال والطلاب منذ غد

فريتز : (يعطيه منشوراً آخر) اقرأه أيضاً يا بيير .

بيير : (يقرأ) فلترحلوا عن الجزائر   ما عاش من سلـَّم جاسر !

(يرميه قائلا بخفة) مهما يكن فسيضعفون

سيقاومون إلى مدى ، ويسلمون

فريتز : أتظن هذا ؟

بيير : إنه بلد فقير يلعق الدم من جراحه !

وأمام مليون كهذا لا اتحاد ولا فضائل

فريتز : لكنه بلد رهيب فى كفاحه !

(شيئاً فشيئاً يدخل من الدروب الجانبية رجال جزائريون بملابسهم الوطنية وينتشرون)

فريتز : (مأخوذاً) اسمع لماذا لا نعود !

بيير : أنعود ؟ كيف ؟!

فريتز : أتظنهم سيسلمونك جارية ؟! أو رأس قائدهم هدية !

بيير : يا أيها الألمان ، أنتم هكذا : متحجرون !

فريتز : أنا لست أفهم كيف جئت بنا إلى هذا المكان !
أنا كيف جئت ؟

بيير : سأظل أبحث عن غريمى ها هنا فإذا فشلت
فأنا سأرجع دون ريب ما بصيد ما ، بمال أو بأنثى باهرة
بمتاع ليل كامل !

فريتز : (بسخط) تلك الليالى الداعرة   ستكون فاحشة الثمن
فلقد تكلفنا الحياة بأسرها   ثمناً لها !

(يمشى بيير بين الرجال)

بيير : أنظر إلى أبطالك الأبرار عجف كالعصى !

(يمسك بواحد) قل أنت قل يا عبقرى

ألديك أنثى أو حشيش ! قل يا غبى

(الرجل لا يجيب)

بيير : (متجهاً لمصطفى بوحريد الجالس أمام دكانه)

هيه ! أنت ! قف !

مصطفى : (يقف) قل ، لا تخف ماذا تريد ؟

بيير : (مستخفاً) أأنا أخافك ؟!

مصطفى : الخوف يحرس كل إنسان هنا حتى الشجاع !

بيير : قل يا رجل

مصطفى : ماذا تريد من الرجل

(بيير يتأمل الحرير المعلق على دكانه)

بيير : هذا حرير رائع .. فبكم تبيع المتر منه ؟

مصطفى : هو لا يباع

بيير : (ساخراً) مولاى يا ملك الحرير !

مصطفى : يا سيدى .. أنا لا مليك ولا أمير وإنما عبد فقير

بيير : (مغيراً لهجته) قل لى أتطمع فى مزيد من ذهب ؟

مصطفى : وبما سينفعنى الذهب ؟ أيضئ قبرى ؟
هل يخفف من ذنوبى ؟ هل ...

بيير : (متحدياً) قل أين جاسر ؟
فى أى هاتيك الجحور السود مخبأ جاسر ؟

مصطفى : (بهدوء)
لو كان سهلاً أن يُنال فتى كجاسر بالسؤال العابر
يا سيدى الميجور ما رُصِدَت مكافأة لرأسه !

فريتز : الشيخ أحكم من رأيت من الرجال .

بيير : إنى لأعجب بالذكى وأنحنى لجلال بأسه

مصطفى : لا ينحنى الإنسان للإنسان !!

بيير : (بصوت مرتفع) هذا الشيخ معقول وطيب .

(يهمس له) لِمَ لا تطاوعنى لتكسب

ألديك .. ؟ (يشير إليه بيديه إشارة تدل على جسم امرأة)

مصطفى : ماذا ؟ هكذا ؟!

(يقلد إشارته فيضحك الجزائريون الذين يملأون المسرح الآن بثيابهم الوطنية)

بيير : (محرجاً)

أولا[1] ... وكيف ؟ ألست تفهم !

(يعيد الإشارة)

أنا لا أريد سوى فتاة مسلمة ؟

مصطفى : لِمَ ؟ .. للزواج ؟ فذا محرم ؟

بيير : بل للصداقة .. أو لتعمل خادمة

إنى ليعجبنى النساء المسلمات !

---

[1] أولا : تعبير فرنسى يدل على التعجب .

مصطفى : ومتى حصلتَ على فتاة من هنا حتى اغتصابا ؟

اذهب إلى الشانزيلزيه تجد النساء على الرصيف مكومات !

(ضجة استحسان وضحك)

فريتز : أسمعتَ هذا يا بيير ؟

بيير : (محنقاً منقضاً على مصطفى) قل ما هو اسمك

مصطفى : (ببساطة) اسمى أنا ؟! أنا عبد ربى ..

بيير : أرنى بطاقتك

مصطفى : (يفتش عنها) البطاقة ؟! هاكها ..

(يناوله بطاقته) خذها ، ولكن لا تُضِعها

بيير : هل أنت أبله ؟

مصطفى : لا .. لست أبله   لكنما أنا تاجر بى حرص تاجر

وأنا أعامل ضابطاً من بين حامية الجزائر .

(فريتز يقلب القماش)

فريتز : المتر من هذا بكم

(بيير يفحص البطاقة ومصطفى عيناه على بيير)

(مصطفى لا يرد)

فريتز : يا أيها الشيخ التفت

مصطفى : أنا لا أبيع الآن

فريتز : كيف ؟! سأشتريه بما أردت

مصطفى : أنا لم أرد شيئاً سوى ألا أبيع فما تريد الآن أنت ؟!

هارون : لكنما الإضراب فى الغد فلتبعه الآن

مصطفى : لا

بيير : هل أنت مُضرب ؟

مصطفى : أفرغتَ من فحص البطاقة ؟ هاتها

(يأخذها)

بيير : هل أنت مُضرب ؟

مصطفى : يا سيدى أنا بالصراحة لا أبيع لضابط أبداً .

فريتز : وكيف ؟

مصطفى : لأنهم لا يدفعون

فريتز : لا ! لا تخف إنى سأدفع فاطمئن .
فبكم تبيع المتر ؟ قل ، واخصم لنا نصف الثمن

هارون : يا مصطفى لم يبدأ الإضراب

أحمد : (يمسك هارون) هس ! اخرس يا نجس

(يلطم هارون)

هارون : (لأحمد) أتهين خلقة ربنا

أحمد : (هازئاً) لا والنبى أدخل علينا كلنا !

بيير : (لفريتز) لِمَ قلتَ إنك سوف تدفع يا غبى

فريتز : (يقلب القماش) هذا بديع الذوق

بيير : لو شقراء تلبسه !

فريتز : سآخذه لسيمون

بيير : (متعجباً) سيمون ؟!

أتظنها تهواك ! اصحَ ! فإن راقصة كسيمون عصية

فريتز : ولمَن ترى مِن محظياتك تشترى يا دون جوان مَن السعيدة

بيير : هذا لصاحبة جديدة سمراء فاتنة شهية

والسِحر أسمر لكنها ...

فريتز : طبعاً ... عصية إلا عليك

(ينصرفان شيئاً فشيئاً إلى الحديث بينما مصطفى يغلق الدكان)

بيير : حتى عليا

فريتز : أتكون أرمل واحد من فرقتك ؟

بيير : هى بعد ليست أرملة
لكنها امرأة معقدة تربت فى كنيسة

فريتز : ومن الفريسة

بيير : هى زوجة الشاويش .. ما اسمه ؟ .. ذلك الشاويش جان !

فريتز : يا سيدى أترك زوجة الرجل الفقير لحالها ! لا تـُغرها .. !
فالثوب من هذا يساوى ضعف راتب زوجها

بيير : سيكون أول ما أقدم من هدايا !

فريتز : مسكينة هى !

بيير : لا يليق بها سوى هذا الحرير !

وفراشها أولى به من ذلك الشاويش ميجور خطير

بيير : (لمصطفى) يا أيها الشيخ المخرف هل جننت ؟!

ماذا صنعت ؟

مصطفى : (ببساطة) أغلقت دكانى

فريتز : وكيف ؟

مصطفى : لأننى رجل مجرب

فريتز : افتح

مصطفى : عجباً ! أأفتحه ليُنهَب ؟

بيير : (بغطرسة) فلتفتح الدكان

مصطفى : (بثبات) كلا !

بيير : (ثائراً) افتح وإلا ...

مصطفى : هل ذاك إنذارٌ ؟

بيير : نعم

مصطفى : اسرق إذا شئتَ المحلا ..

فريتز : لا يا بيير .. كفى !

(يفتح بيير الدكان بالقوة ويختطف بعض قطع الثياب المعلقة)

مصطفى : وبعد ؟

بيير : (يشهر مسدسه) إذا تحرك منكم أحدٌ قـُتِل

فريتز : بيير ! فى هذل الكفاية ! فلننصرف

بيير : هيا بنا .

مصطفى : (ساخراً) أوَ هكذا ؟ فلننصرف !

بيير : بونسوار .. السلام عليكم ..

أسعد مساء أنت يا شيخ العرب

مصطفى : (معترضاً طريقهما فى تحدٍّ)

فلتدفعا ثمن القماش أو أتركاه

بيير : أتريد إحداث الشغب

(الناس يهمهمون وبعضهم يصيح : لا .. لا ! فيدخل جان من أحد الدروب الجانبية على الضجة المرتفعة)

جان : يا قوم ما هذا الضجيج فيما اجتمعتم كلكم ؟

(يتقدم من بيير) ما كل هاتيك الثياب ؟

أوه يا سيدى أعِد الثياب ...

بيير : عجباً بأية جرأة يا أيها الشاويش تصنع مثل هذا ؟

جئنى غداً فى مكتبى بجناح ضباط المظلات

جان : غداً ؟

بيير : (لفريتز) لم يبق إلا زوجها أيضا ؟! أيرفع رأسه ؟

(ثم لجان) لو كنتَ تعرف أين يذهب ذلك الثوب الجميل

لما اعترضتَ

جان : ولمن يكون ؟ .. لمن يكون سوى لإحدى الضائعات !

مهما يكن فأعِده ...

(تدخل أمينة بملابسها الوطنية ووراءها جميلة بثيابها المدرسية)

هارون : أهلا أمينة . يا مرحباً .. أهلا جميلة .

بيير : (متنبهاً وهو يلحظها) ماذا ؟ فتاة

فريتز : بل اثنتان !

بيير : أو لا لا لا ! أرأيت هذا الحظ كله ؟

(متقدماً نحو الفتاتين)

أقبلتما بالضبط فى الوقت المناسب بعد ما

كنا يئسنا من وجود المسلمات

مصطفى : (للبنتين مقاطعاً) تقدما .. سيرا إلى بيتيكما .

ببير : (لجميلة) لِمَ تختفين وراءها ؟ أنا لست عفريتاً يخيفك !

أمينة : ماذا تريد ؟

ببير : (لأمينة وهو يشد على كتف فريتز)

أنا لا أريدكِ أنتِ .. خذها من نصيبك

(متقدماً لجميلة مغازلاً)

وتقدمى يا هذه السمراء سوف أكون صاحبك العزيز

لِمَ تخبئين وراء كتبك كل هاتيك الكنوز ؟ السحر أسمر !

جميلة : (بذعر) ماذا تريد ؟ لتبتعد ..

أمينة : (صارخة وهى تدفعه هو وفريتز)

فلتفسحا هذا الطريق لكى نمر معاً

(تفتح أمها باب الشرفة وتقف فيها ووراءها ابنها الصغير)

الأم : (فى جزع)

بنتى أمينة ؟

أمينة : لا تجزعى .. قد جاء قطاع الطريق

لكنهم لن يقطعوا أبداً طريق حياتنا

جميلة : (مستغيثة) يا خالتى .. زحف الجراد !

أحمد : ظهر الفساد

أم أمينة : يا للرجال .. ألا يخلص منكم بنتى أحد !

مصطفى : لا تصرخى ستعود سالمة إليك

ولا تجيئى ها هنا وسط الأجانب

أحمد : إيه .. قل العقارب .

أمينة : (من الشرفة) أين المسدس يا جميلة .. هل أتيت به معك !

فريتز : (وحده) وأنا كذلك كان لعبتى المسدس فى الطفولة !

جميلة : (لفريتز) يا سيدى ! الله يستركم ، دعونا

أحمد : فلتتركا البنتين

مصطفى : يا أحمد اسمع ! اسمعوا (لبيير) أنا ذاك بوحريد يقول

الرجال : ماذا يقول ؟ ليقل لنا بوحريد ..

مصطفى : بوحريد يقول :

الظالم الباغى تدور به الدوائر

ولسوف نجلى الظالمين عن الجزائر

(ضجة استحسان)

بيير : (لجان) يا أيها الجاويش خذ هذا إلى البوليس متهماً بقتلى .

جان : هل قتلت !

فريتز : نفذ أوامره ! أتفهم يا غبى !

بيير : هو ذا يحرضهم علىّ !

جان : أنا منذ عشر دقائق فى راحتى

بيير : فى راحتك ؟

جان : (مستمراً) وأنا كذلك لست جندياً لديكم فى اللفيف الأجنبى أو فى المظليين

بيير : (محنقاً) تيس !

جان : لا ! ليس من أدب التعامل أن توجه لى شتيمة

فريتز : هل أنت جندى ؟ أتعرف أن رفضك ...

جان : (يقاطعه باستخفاف) هه ؟!

بيير : جريمة ! .

جان : إنى لأعرف ما النظام العسكرى   من ثلث قرن يا بنى من مثل عمرك أو يزيد

بيير : سترى غداً ماذا يصيبك

جان : مهما يكن ، فغداً إجازة

مصطفى : بل ما يصيبك فى حياتك هذه إلا نصيبك

بيير : سنرى

جان : أجل سنرى   ومن يعش الحياة ير الكثير

لكن أعِد ثوب الحرير

بيير : بغل حقير !

فريتز : هيا بيير ..

بيير : (لأمينة وجميلة) وتفضلا معنا

(يتحرك بيير .. وهو يمد يده إلى أمينة وجميلة ويكاد يحيطها بذراعه عنوة بينما الرجال يقفون دون الفتاتين فى ثورة وفجأة يظهر مبروك فى صدر المسرح ومعه مدفع رشاش يقتحم به ويقفز إلى حيث يقفان)

مبروك : بل لن تبارح موضعك   ستموت فيه   ارفع يديك

وأنت أيضاً يا فريتز ارفع يديك !

بيير : (يضطرب وتسقط الثياب من بين يديه ومن يدى فريتز)

من أنت ؟!

فريتز : من ؟! . من أين جئت !

مبروك : من السماء !

جان : مبروك ! ماذا ؟! هل جننت ؟

من أين هذا المدفع الرشاش ؟! كيف أتيت به ؟

بيير : (منهاراً) من أنت ؟! من ؟

مبروك : أنا مصيرك .. !

بيير : (فى انهيار) لا يا إلهى ! أنت جاسر !

هو ذاك ذئب الكاسبا الشرس المغامر !

(همهمة بين الرجال)

الرجال : قد جاء جاسر

(جان يطلق صفارته مستنجداً)

بيير : يا سيدى الشاويش أطلق مرة أخرى صفيرك عاليا .

مبروك : قف أيها الشاويش جان .. لتقف هنا .

(جان ينضم إلى الضابطين الواقفين)

مبروك : (لجان) ارفع يديك

(يرفع جان يديه كالضابطين)

جان : مبروك إنك طائش !!

فريتز : دعه .. سيدفع رأسه ثمناً للعبته الحقيرة

مبروك : رأسى أنا ؟ رأس تساوى اليوم مليوناً .. وها هو بينكم !

أسرع بيير فإنه أدنى إليك من الفتاة

أسرع فريتز ألا تراه ؟

اقطعه يا جان المعذب أنت تحلم بالغنى !

جان : مبروك ! لا ! كيف انتحلت اسماً كهذا ؟ إنه عمل خطير

لا ! لست جاسر ! لست جاسر أنت مجنون كبير !

(صوت جنود قادمين من الخارج)

صوت : من ها هنا ارتفع الصفير بالاستغاثة سيدى

صوت آخر : بل من هنا يا سيدى الكولونيل

(الرجال يستعدون ويخرج بعضهم خناجر ومدى تفتح بطريقة أوتوماتيكية فتلمع نصالها وبعضهم يخرج بنادق ومسدسات قديمة يستديرون جميعاً ناحية الصوت .. ومبروك الذى اتضح الآن أنه هو جاسر يستدير أيضاً بحذر وإذ ذاك يشرع ببير مسدسه فتلمحه أمينة وتنقض عليه فيقع المسدس على الأرض وقدم أمينة فوقه)

أمينة : (صارخة) عبثاً تحاول ! لن تنالوا رأسه أبداً .

الأم : (تظهر من الباب وهى تصرخ) أمينة

مصطفى : (بحزم) لا تصرخى

(ثم لأمينة)

عودى إلى البيت ! اصعدى ! عودى لبيتك يا جميلة .

(الأم تعود بأمينة وتخرج جميلة مسرعة)

(يدخل عزام وهو ضابط شرطة جزائرى ووراءه جنود الشرطة)

عزام : ما كل هذا ؟ هل تقوم هنا القيامة ؟ أم عساكم تلعبون ؟

بيير : كولونيل عزام الصديق ؟ تحيتى !
أو لا .. !! هبطت من السماء لنجدتى !

عزام : ماذا ؟ بيير ؟ فريتز ؟ ما أغباكما لِمَ ترفعان يديكما ؟
هل تسألان الله شيئاً ؟

بيير : عزام أنجدنا

عزام : ماذا أتى بكما هنا فى الليل فى أمثال هاتيك الجحور ؟

فريتز : (مستعطفاً) عزام أنقذنا بربك ! عاد جاسر !

عزام : (للجميع بحسم) ألقوا السلاح جميعكم
ألقوه وامضوا من هنا !

أحمد : وهما ؟؟ فليلقيا قبل السلاح

عزام : سلم سلاحك يا فريتز وأنت أيضاً يا بيير .

بيير : أنا

عزام : (همساً) سأعيده لك بعد حين   سلمه ذراً للرماد
كيلا تكون الآن فتنة

بيير : (يشير لمسدسه الملقى على الأرض) هو ذاك ملقى !

(الكل يلقى سلاحه .. ويبدأون فى الانصراف)

بيير : عزام شاركنى مكافأة الشقى   فأنا الذى استدرجته .

عزام : إن كان جاسر بينهم حقاً .. فإنك عبقرى

بيير : هو ذاك جاسر

جان : إنى لأقسم أنه مبروك

عزام : هل أنت تضمن أنه مبروك ؟

جان : إنى لأقسم بالمسيح

عزام : (هامساً لبيير) دعنى أرتب كل شئ واطمئن

ولتذهبا ، فهم جميعاً ها هنا متحفزون

ستكون مجزرة نباد بها جميعاً يا بيير

إنا قليلٌ ها هنا وهم كثير

إنى أنا أدرى بهاتيك الجحور

قد يسحق البطل الفرنسى الموقر ها هنا مثل الذبابة

وتلطخ الأوحال تيجان المهابة !

اذهب ودع لى كل شئ واطمئن والآن عودا فى سلام

وسنلتقى فى حان سيمون العزيزة بعد حين

فريتز : فى حان سيمون العزيزة !

(بيير يمد يده ليأخذ الثوب وهو ينصرف)

جان : يا سيدى دع ذلك الثوب الذى خلق المشاكل كلها

يا مصطفى بوحريد خذه ...

(يبادر هو فيأخذه ويناوله لمصطفى)

عزام : (لجنوده) سيروا وراء الضابطين

(جان يتهيأ الآن للخروج ، بيير وفريتز يقفان فى مدخل المسرح)

بيير : (لعزام) شكراً .

(ثم يستدير مهدداً الموجودين)

إنى سأهدم هذا الكاسبا عليكم ذات يوم

إنى سأهدمها عليكم فى غد أو بعد غد ! فلتدفعوا ثمن التمرد !

(يخرجان ووراءهما الجنود)

عزام : والآن أقبل أنت يا ...

جان : يا سيدى أيكون هذا جاسر   إنى لأقسم أنه مبروك !

عزام : أنت على صواب   هو ذلك المخبول مبروك

جان : أجل .. أجننت يا مبروك ؟ .. ويحك !! سوف تـُسجَن !

(ثم لنفسه) لو أن هذا كان جاسر لقتلته عن طيب خاطر

عزام : (لبعض جزائريين ما زالوا واقفين) هيا اذهبوا

(يخرجون مسرعين من الدروب الجانبية)

عزام : (لأحمد ومصطفى) ولتغلقا الدكان والمقهى .. هيا

(أحمد يغلق عليه المقهى ومصطفى يغلق دكانه هو الآخر وجان يتلكأ)

جان : أشفِق على مبروك .. فهو فتى غرير أحمق !

عزام : لا تخش شيئاً   إننى أنا بالضحية أرفق !

جان : هو ليس جاسر ! إننى خالطته يومين

عزام : أعرف

جان : (لنفسه وهو يتصرف)

ميجور بيير يحسب أننى رجل مغفل !

(يخلو المسرح تماماً من الناس إلا من عزام وبوحريد وجاسر والحديث يدور فى شبه همس فى مقدمة المسرح)

عزام : ستحاصر القصبة

جاسر : متى

عزام : الآن ... بعد العاشرة   قد يبحثون عن السلاح هنا

جاسر : (لمصطفى فى شبه أمر) فلتنقلوه إلى المخابئ

مصطفى : إن المخابئ عامرة !

جاسر : فلتنقلوه إذن إلى سرداب أحمد

أحمد : فليكن !

عزام : دع مصطفى بوحريد يُشغل بالسلاح
واذهب فبدل أنت ثوبك .
سأقود جاسر لاجتماع فى قيادة جبهة التحرير يبدأ بعد ساعة

مصطفى : أيكون أول ما يناقش فيه نسف الكوميساريا

جاسر : حقاً .. فإنا إن ضربنا مركز البوليس ..

عزام : (لجاسر مقاطعاً)

ستكون أنت القائد المسئول فى نسف الكوميساريا .

مصطفى : تساعده أمينة

جاسر : طبعاً (ثم لمصطفى) وأنت تعال عند الفجر من بعد الصلاة

حتى تبلغها بخطتنا التى سنعدها فى الاجتماع .

(جان يظهر فى الصدر)

عزام : (لمصطفى)

سأكون عند الكافتيريا فى انتظارك من أذان الفجر !

جان : (لنفسه) ماذا يدور هنا وراء ظهورنا ؟!

(جان يتقدم فيشعرون به وإذ ذاك يمسك عزام بجاسر من ذراعه ويقول بلهجة خاصة)

عزام : والآن يا مبروك .

(يضغط على اسم مبروك)

جان : (لنفسه) هو ذا إذن ! هو ليس جاسر !

أنا لست بالرجل المغفل !

(ثم يخرج)

عزام : عفواً ! وهل فيكم مغفل ؟!

((ستار))

الفصل الثانى

(فى القصبة أيضاً .. جزء من شارع ضيق متدرج على يساره جدران متهدمة وخرائب .. بيت بوحريد يملأ يمين المسرح . البيت من طابقين .. الطابق الأول منه فى مستوى آخر درج من الشارع . مدخل بيت مصطفى بوحريد فى الصدر يفضى إلى بهو ضيق به سلم .. السلم يقود إلى حجرة فسيحة بها شرفة فى الصدر ولها بابان من اليمين .. عندما يفتح باب الشرفة الواسع يبدو الأفق والجبال من بعيد ، والسماء .. وقلعة برباروسة بأبراجها العتيقة جاثمة كشبح رهيب ! . الوقت مساء ... الشارع يكاد يكون مظلماً .. جميلة على مكتبها فى الحجرة والشرفة من أمامها تغمرها حمرة الأصيل وعلى المكتب كتب كثيرة وحقيبة مدرسية .. والحجرة من الطراز الأندلسى متواضعة الأثاث .. وآنية الزهور قد نسقت فيها بعناية ... جميلة تضع رأسها فى يديها فى حزن شديد !)

جميلة : أنا لا أرى ضوء النهار

أنا لا أرى إلا الدخان ولست أسمع غير أصوات انفجار .

وغير ترجيع الأنين ! وارحمتا لك يا أمينة

إنى لأعجب كيف متِ

(صمت .. ثم تنتفض كأنها تكلم خيالاً)

لِمَ جئتِ بعد بداية الدرس ؟ اشرحى لى أين كنتِ

لا . كيف هذا !! كانت كعملاق بطل !

لا ... لا محال أن تموتى يا أمينة مثل هذا

دخلت إلينا بعد ذلك الانفجار

ومدرس التاريخ يهذى عن بطولة بونابرت

والطالبات أمامنا ووراءنا يهزأن بالدرس الممل

وامتد كف أمينة لتهزنى وكأنما يدها تقول

وبعينها ومض هزيل !

وشعرت فوق ملابسى بدم .. أجل ، دمها النبيل

دمها ؟ أجل دمها يسيل على الكتب

وسألتها ماذا دهاك ؟ فلم تجب !   ماتت على درجى !

أجل !

(تتحرك فى ضيق متجهة إلى الشرفة والأفق يغمره غسق أحمر فاجع الشحوب)

ما بال ألوان المساء   هناك تصبغها الدماء

والريح مثقلة بمأساة الحياة ، وكل شئ مختنق

أسفاه ! قد سقطت وفى نظراتها وهج سيشرق

وبيير يركلها بكعب حذائه والرعب يعتصر الجميع

ودماؤها تنسال فى خيط رفيع   وبمثل لمح البرق مالت

وتجرعت أنبوبة السم الصغيرة ثم قالت :

لا تتركوا أحداً يساق لسجن برباروسة

ولديه سرٌ من الأسرار

فهناك حكم العار !   والتعذيب ، والموت البطئ بغير رحمة

والانتحار   أعز للآن من أن يسجنوه

ماتت وفوق شفاهها اختلج الهتاف :   تحيا الجزائر

(تدخل إلى الشرفة وعيناها على سجن برباروسة تماماً)

وارحمتا لك يا أمينة !   أواه .. أنفاسى ثقيلة

(منفجرة)

لِمَ لا تصيح الأرض فى وجه المظالم والمجازر

لِمَ لا يصير تموج النسمات كالضربات فى وجه الطغاة ؟

لِمَ لا يزال الليل يسطع بالنجوم على الجزائر

لِمَ لا يزال الزهر يذكو ها هنا فى حجرتى ؟

عاد الربيع فما الذى يرجو الربيع ؟

ما زال زهر الأرض يطفو فوق أمواج الدموع !

والشمس تشرق رغم مأساة الحياة ولا تبالى !

أواه قد زحف الظلام وليلتى أنـَّت كثاكلة الليالى

(كأنها تصرخ ونظرها متجه إلى قلعة بربروسة)

لِمَ ذلك السجن الرهيب يصد سر الليل عنى ؟ لا تدن منى !

يا سجن بربروسة فلتحتجب عن ناظرى

لا شئ مثلك يستثير خواطرى

فى حيثما أمشى ، هنالك فى الطريق ، وحين أفتح نافذة

أنا لا أرى إلا قلاعك كالمسوخ الشائهات ! لا تدن منى

لا شئ مثلك يستثير خواطرى

يا أيها الحجر المهين

من أى أحجار الجحيم صُنِعتَ ثم وقفتَ مرتفعاً على أشلائنا

مستهزئاً بصراخنا ودموعنا

وبكل ما امتلك الفؤاد من المنى ، ومن الضنى !

(كأنـها تقذفه بكل جسدها)

ليطح بك الطوفان ليثر بك البركان

فلتسحقك صاعقةٌ يؤججها لظى أنفاسنا

واللاعج المكظوم فى أعماقنا والشارد الملتاع من أحلامنا

(تتهاوى فى حالة انـهيار بينما يسود الحجرة ظلام المغرب وفى الطريق من الخارج يتضح وجه هارون الذى دخل الشاعر منذ لحظة مع بيير .. ثم يظهر أحمد المصرى وعندما يكتشف وجود هارون من وراء أحد الخرائب مع الضابط يتراجع ، ويقف متسمعاً ، بعيداً عنـهما وراء أحد الجدران المتهدمة ..)

هارون : فى ذلك البيت المهدم ، هل ترى البيت المهدم ؟

بيير : لو كنت تكذب سوف تـُفصل ثم تـُسجن ، ثم تـُعدم .

هارون : أنا فى الصباح رأيته يمشى وراء الكوميساريا

وأتت أمينة وكأنـها تلقاه صدفة

ومضيت نحوهما وكدت أناله لولا مفاجأتى بذلك الانفجار

ورأيتها تمضى بعيداً فى اتجاه المدرسة أما الشقى ، فقد هرب !

بيير : أتقول فى هذا المكان تجمعوا ؟

هارون : خلف الجدار ! حاصِرهم مما وراء المسجد

فهناك سرداب قديم يهرب الثوار منه !

بيير : سأعود بعد هنيهة برجالنا .

هارون : أوَ لا يفتش سيدى هذا المكان

فلقد يكون هناك من يتسمعون

بيير : (وهو ينصرف)

ألدىَّ وقت كى أضيعه على شك الجواسيس المبالغ فيه ؟

(ينصرف)

هارون : أنا لست جاسوساً كما قلنا ولكنى مواطن

أنا أخدم الوطن الكبير الأم ..

(أحمد المصرى ينقض عليه من ظهره ومعه خنجره فيحاول هارون الصراخ ولكن أحمد يكمم فمه)

أحمد : خائن !

(هارون يحاول أن يصرخ فيقترب أحمد المصرى بالخنجر إلى قلب هارون)

أحمد : هارون ... جرب أن تصيح

هارون : أخى

أحمد : امض من هذا الطريق

هارون : ماذا ستصنع يا صديقى ؟

أحمد : هل لجاسوس صديق !

(يختفيان وراء جدار مهدم آخر غير الذى كان يقف أمامه هارون وبيير منذ لحظة .. بينما مصطفى بوحريد يدخل غرفة بيته حيث انكفأت جميلة فى الظلام على مكتبها .. مصطفى لا يرتدى ملابسه كاملة)

مصطفى : (لنفسه وهو يتأمل جميلة)

ماذا ... أتقرأ فى الظلام !

جميلة : (كأنها تئن)

لِمَ لم يعد يتواثب العصفور فى أرج الخميلة ؟

لِمَ تسحق الزهرات أقدام معربدة ثقيلة ؟!

لِمَ خضرة الزيتون قد غاضت ولم تعد الحياة سوى اصفرار كالعدم ؟

تيهٌ يئن به الندم

لِمَ هذه الدنيا تئن كأنـها قلب معذب !

لِمَ كل شئ باهت حولى ، ومذنب ؟؟

(مصطفى يضئ النور)

مصطفى : يا جميلة

جميلة : عمى .. أأنت أضأتَ هذا النور ؟

مصطفى : ماذا يا ابنتى ؟ لِمَ أنتِ شاردة

جميلة : أنا ... ؟

(يمسك كتابها وينظر فيه)

مصطفى : أنا لست أعرف كيف أقرأ ، إنما من ساعةِ

وأنا أراكِ أمام نفس الصفحةِ إنى لأعرفها بتلك الصورةِ

(يضحك فى طيبة)

جميلة : تتشابه الصفحات يا عمى كأيامى تماماً !

مصطفى : ماذا عساكِ قرأتِ فى صفحاتك المتشابهات ؟

جميلة : قصص الشقاء .

مصطفى : ما زلتِ أصغر يا ابنتى من مثل هذا الحزن

جميلة : أنا لست أصغر من كثيرات سمون على الحياة

مصطفى : حقاً !

جميلة : فى مثل سنى يسقط الآلاف من شهدائنا

وعلى الشفاه ، مع الدم المسفوك رن هتافهم   تحيا الجزائر

(تبكى بصوت مختنق)

مصطفى : لا لا . امسحى عينيك

جميلة : عمى لماذا آثرتْ أن تنتحر

مصطفى : هذا قضاء الله فى بعض المواقف يا ابنتى

يختار بعض الناس صمت الموت

جميلة : عمى .. لماذا اخترتَ أنت تلك الحياة الساكنة

متحصناً بالصمت خلف جدار حكمتك الوقور المذعنة

أوَ لا تبالى بالذى يجرى هنا ؟

مصطفى : لا تـُشغلى سوى بدروسك يا ابنتى

جميلة : أعلمتَ ما قالت أمينة لى ونظرتها الحبيبة تنطفئ ؟ .

ما زال فى أذنى صدى من همسها :

قولى لهم ! فلمن أقول ؟

مصطفى : (باهتمام خاص) قولى لهم ماذا ؟

جميلة : لمن ويحى أقول رسالتى ؟!

(ولد صغير هو سرحان شقيق جميلة يأتى من الداخل من الباب الجانبى ويتجه إلى مصطفى بوحريد)

سرحان : (يصرخ)

ساح الماء من المغطس يا عمى فلتدخل فورا

فلقد أقفلتُ الصنبور   وفتحتُ البالوعة

مصطفى : اذهب يا سرحان وسد البالوعة

سرحان : طيب

(يخرج)

مصطفى : سأجئ وراءك للحمام .

جميلة : أهذا ما يعنيك الآن ؟   الحمام !
أفلا تعنيك رسالتها ؟!
وهجوم البوليس القاسى يعبث فى بيت أمينة
والقبض على أم أمينة وأخيها .. ؟

مصطفى : (متحرجاً) حسبك   حسبك يا مجنونة
فالجدران لها آذان

جميلة : (مستمرة) وتهجمهم فى كل مكان
ودم الشهداء يسيل هنا وهناك .. ألا يعنيك ؟

مصطفى : لِمَ تنشغلين بغير الدرس ؟

جميلة : أوَ أنت تعلمنى هذا ؟ أوَ أنت ؟

مصطفى : ضعى عينيك على دفترك ولو ذى الساعة بالصمت
فلتنشغلى بكتابك

(جميلة تقذف الكتاب وهى تصرخ)

جميلة : فى تلك الصفحات السود يُلفــَّـق تاريخ الإنسانِ
هى سخرية بى وبعقلى وبوطنى وبوجدانى
فى تلك الكتب المسمومة ! المفتريات المشئومة
عن وطنى العربى الباسل ! لن أقرأها ، سأمزقها
سأمزقها ؛ وسأحرقها

(ترمى بالكتب كلها وتركلها بينما مصطفى بوحريد يريد أن يمنعها)

مصطفى : أجننتِ ؟ ماذا تفعلين ؟
إن الجزائر يا ابنتى فى حاجة لمثقفين

جميلة : إن الثقافة زُيِّفت فى هذه الكتب اللعينة

أنا لا أرى وطنى الجزائر ها هنا

فى صفحة منها ، ولا فى منزلى .

مصطفى : فى منزلك ؟

جميلة : أترى أتى الزمان الذى لابد لى فيه من استنفار مثلك

أنت الذى علمتنى مع أول الكلمات ألفاظ النضال

مصطفى : ما بال طفلتى الصغيرة ثائرة

ما بال قطتى الوديعة أصبحت مثل النمور الكاسرة

جميلة : أنا لست قطتك الوديعة بعد ، فاتركنى لحالى

مصطفى : لا تصرخى فسيسمع الجيران صوتك

جميلة : أنا لا أبالى سأظل أصرخ ثم أصرخ كى أحرك نخوتك

وأثير فيك عروبتك قم يا رجل

أطلق صراخ الاحتجاج على الأقل

ما كل هذا الصمت .. هل هرب الدم العربى منك ؟

مصطفى : أجننتِ ؟ كيف تخاطبين اليوم عمك هكذا ؟!

جميلة : دعنى ..

مصطفى : وكيف توجهين إلى الذى رباكِ ألفاظاً كتلك

جميلة : أنا أكرهك

(يرتطم جسم بأرض الشرفة ويدخل جاسر من باب الشرفة المفتوح مندفعاً إلى مصطفى بوحريد ويمسك به . سرحان شقيق جميلة يأتى من الداخل على صوت الارتطام وصراخ أخته)

مصطفى : من ؟ جاسر !! يا مرحباً بك

جميلة : (مأخوذة) أنت جاسر ؟!

مصطفى : اجلس هنا

جميلة : (مضطربة) عمى .. فأنت إذن ...

جاسر : (يقاطعها بحسم كأنه يطردها) جميلة

مصطفى : أدخلى

جاسر : وخذى أخاك

سرحان : من أين يعرفنا ؟

جميلة : (فى زهو كطفلة) هو ليس يعرف غير اسمى

سرحان : (هامساً لأخته) واسمى كذلك أنظرى .

(سرحان يتقدم متجهاً إلى جاسر الذى يضيق بوجودهما الآن)

سرحان : أتراك تعرفنى ؟

جاسر : (بسماحة وصبر) أجل سرحان .. سرحان البطل .

سرحان : (لأخته فخوراً) أرأيتِ ؟ سرحان البطل

(يضحك جاسر وهو يتأمل فرح سرحان)

جميلة : (لنفسها) ماذا ؟ أيضحك جاسر .. ؟

سرحان : (بدهشة لأخته) أرأيت جاسر وهو يضحك

أوَ مثل هذا الفارس المغوار يضحك !

جاسر : (بحسم مفاجئ لجميلة وسرحان) لِم تبقيان ؟

لتتركانا الآن

(جميلة تتجه إلى السلم .. ووراءها أخوها سرحان الذى يقطف زهرة من آنية الزهور)

جميلة : (لسرحان فى غضب) سرحان لا تقطف زهورى

سرحان : (وهما يمشيان) قد تعبنا من زهورك

(سرحان يعبث بالزهرة)

جميلة : لِمَ تسحق الزهر الرقيق ؟!

سرحان : لو كنتِ تهتمين باستذكار شئ من دروسك

مثل اهتمامكِ بالزهور !! قد كا عمك يضربك لتذاكرى ..

وأنا سمعتكِ تصرخين

(جميلة تسكته بيدها)

مصطفى : قد كنت فى قلق عليك ..

جاسر : أنا كذلك .. كنت فى قلق حزين

أعرفت يا بوحريد ؟ فى القصبة خيانة

مصطفى : ماذا تقول ؟ وكيف هذا ؟ كيف ؟ قل ! يا للمهانة !

جاسر : قد طوقونا فى بداية الاجتماع .

مصطفى : فى مخبأك !؟

جاسر : فهربتُ عبر السطح ثم زحفت من سطح لآخر .

حتى هبطت بشرفتك .

مصطفى : من يا ترى الجاسوس ؟! من ذا قادهم لمكان جاسر ؟

جاسر : أنا لست أعرف من يكون

(جميلة تندفع إلى السلم من الطابق الأول)

جميلة : (مندفعة) هارون

جاسر : (فى غضب) كيف سمعتِ ما كنا نقول

بأى حق تسمعين

جميلة : (مترددة بين الصعود والهبوط)

لكن أمينة وهى فى النزع الأخير مالت علىَّ

وطالبتنى أن أقول بأن هارون الشقى ، هو العميل

جاسر : (باهتمام) ماذا .. تعالى .

جميلة : (تكمل وهى تصعد)

فلقد رآها ثم طاردها صباح اليوم عند الكوميساريا

والحق أنى لم أكن أدرى لمن سأقول هذا كله

ما كنت أعرف قبل يا عماه أنك ..

(تضطرب فتلوذ بعمها وترمى رأسها على كتفه)

مصطفى : يا ابنتى

جميلة : أأنا أهِينك أنت يا من كنت لى منذ الطفولة ...

جاسر : (مقاطعاً) لا ! لا دموع الآن ليس لدىَّ وقت للدموع

أتراهم قبضوا على أحد هناك

مصطفى : أجل . على أم الشهيدة

جاسر : لكنها لا تعرف التنظيم

مصطفى : لا بالطبع ، وهى كذاك ثابتة العقيدة

جاسر : أتراهم قبضوا على أحد سواها .

جميلة : على أخيها

جاسر : (متأثراً) ذلك الطفل الصغير !

(ثم يستدير فجأة وتعاوده لهجته الحاسمة)

جاسر : والآن نحن محاصرون هنا فكيف تجيئنا الأخبار

ثم ... هناك موعد شعبتك

مصطفى : هو بعد ثلثى ساعة فى مخبأك

جاسر : قد يذهب الزملاء لى فى مخبئى وعلى مداخله جنود

مصطفى : أنا ذاهب لأرى وأرسلهم إليك هنا
سألحقهم جميعاً فى البيوت

جاسر : أسرع فقد يفد الصحاب إلى هناك مبكرين

مصطفى : حسناً سأمضى هكذا .. هاتى العباءة يا ابنتى

(تدخل)

جاسر : اذهب لعزام وعمار .. وأما هند   فليذهب لها عمار
يا مصطفى عجل بربك .

(جميلة تعود بالعباءة فيلتف بها فوق ملابسه ويهبط السلم)

مصطفى : السلام ..

جاسر : اذهب .. ترافقك السلامة

مصطفى : لا تفتحى إلا إذا استوثقتِ ممن يقرع الباب

جميلة : اطمئن .

لتعد مُعافىً .. فى أمان الله يا عمى

(يفتح باب البيت ويخرج ويغلقه وراءه)

سرحان : إذن هو أنت جاسر ؟ إن رأسك غالية

جاسر : (لنفسه) ليعد لنا بوحريد منصوراً سليماً بالصحاب

فعلى الطريق وراء هذا الصمت عربدت الذئاب

الليل يحكمه الجنون !

جميلة : (تقترب من جاسر) كانت أمينة لى أعز صديقة لكننى

ما كنت أعلم أنها فى جبهة التحرير

جاسر : أعرف

جميلة : عاشت مروعة الحياة يتيمة حتى إذا حُمَّ القضاء

ماتت شهيدة !

(تدمع عيناها وسرحان يخرج)

جاسر : (يواجه جميلة بصلابة) لا يا جميلة

إن ما نحتاجه ليس الدموع بل الدماء

لا تطفئى لهب الإرادة بالبكاء

جميلة : أما أنا فأظل أبكيها إلى يوم النشور

جاسر : الدمع يطفئ شعلة الحقد المقدس فى الصدور

جميلة : ألأنك البطل الجسور فأنت تحتقر الدموع ؟

جاسر : أنا لست أحتقر الدموع فإنها

هى أصدق الأشياء فى الإنسان ، لكن ...

(يصرخ فيها فجأة وهو يغالب أزمة دموع)

يا طفلتى الحمقاء

جميلة : أنا لست حمقاء ، ولست بطفلتك

جاسر : أغضبتِ ؟ معذرة ولكنى أجـِلكِ من قديم !

هى حدثتنى عنكِ كم كانت أمينة تمدحك

وأنا أجلك منذ قصت لى حكايتك الشهيرة فى فناء المدرسة

لما جمعتِ تبرعات من أجل أطفال الضحايا

وأتى المدير مهدداً فطلبتِ منه تبرعاً

(يدخل سرحان ويتجه إلى جميلة مندفعاً)

سرحان : نسى البطاقة عمنا

جميلة : عجباً وأين هى البطاقة ؟

سرحان : هى ذى

جميلة : (تفحص البطاقة) ما بالها ابتلت !

سرحان : كانت وحافظة النقود بثوبه المخلوع فى الحمام

جميلة : ويحى وكيف إذن سندركه بها

جاسر : هو لن يغيب

سرحان : أيكون راح إلى بعيد

جميلة : وارحمتاه له وكيف يسير من غير البطاقة فى الطريق !

سرحان : فلتعطنى تلك البطاقة سوف أرجعها إلى الحمام

جميلة : اذهب وضع البطاقة حيث كانت

سرحان : (وهو ينصرف بالبطاقة) جنب حافظة النقود

جاسر : (يكمل لها) إنى أجلك من قديم

ولطالما قالت أمينة عنكِ أشياء تثير الكبرياء

وشعرت بالزهو العميق لأن فى فتياتنا هذا الإباء

جميلة : (باهتمام وزهو) حقاً ؟ أحقٌ ما تقول ؟

جاسر : ولكم روت عنك الشهيدة

جميلة : يا ليتنا عشنا على جنح السكينة يا أمينة ، فى السلام !

جاسر : لكنه المقدور

جميلة : (بمرارة) مَن قدَّرَ العداء ؟!

جاسر : من يشعل النيران فى الزيتونة الخضراء والكرم النضير
من يغرس السكين فى قلب يغرد للسلام
من يزرعون الشوك فى روح الصغار ، ويحصدون الانتقام !

جميلة : أنا فى فؤادى ذلك الشوك الذى يُدمِى الفؤاد

جاسر : الشوك فى قلب البلاد .

جميلة : كيف الطريق إلى الخلاص ؟ ألا طريق سوى الدماء ؟!

جاسر : يا ليت أن الذئب يقنعه الكلام !

جميلة : إنى أحس الخوف أحياناً ، أجل ، أنا قد أخاف ، وإنما
أنا رغم ذلك بى اندفاع لست أعرف ما مداه .. فحينما
أبصرتهم يتدافعون على أمينة بعدما
وقعت أمامى وهى تنزف بالدما
أوشكت أن أنقض مثل الغول فوقهم ، فما
أبقى لهم أثراً على أرض الجزائر

ووددتُ لو نبتت بأظافرى خناجر

جاسر : فبكيتِ !

جميلة : إن المرء يبكى حين يعجز

جاسر : بل لن تـُحَسِّى العجز بعد   إنى لأقسم يا جميلة !
فالقلب ينضج ها هنا قبل الأوان

جميلة : إذا هو اكتشف الوسيلة !
(ثم منفجرة)
كيف الوسيلة .. كيف أخلص من معاناتى الذليلة !
أرأيت أصفى الأصدقاء يموت بين يديك غيلة ؟
أرأيت نظرته المودعة التى ترجوك   وتكاد تصرخ فيك ؟
كيف السبيل إلى القصاص ؟
قل لى متى أنضم بين صفوفكم ؟

جاسر : لا تقلقى . فغداً يجئ الوقت !

جميلة : أنا فى الطفولة كنت أحلم أن أكون مجاهدة
ورأيت أمى وهى تـُقتل فوق قبر أبى الشهيد !

فمضيتُ للجبل الأشم   وعلى الطريق ، على مشارف قريتى

قال لى الكبار ارجعى .. فغداً يجئ الوقت

(طرقات على الباب)

جاسر : لا تفتحى حتى نرى من يطرق الباب

جميلة : اطمئن إنى لأعرف من يدق الباب من طرقاته !!

(جميلة تهبط على السلم بثبات وتضئ المستوى الأول من عند آخر درجة وتتجه إلى الباب الخارجى وجاسر يتبعها بنظراته وهو يقول لنفسه)

جاسر : (لنفسه) طفلة تحلم أن تنضم للجيش !!   وفى كل بلد

يحلم الطفل بلعبة   أو بأثواب جدد

إن فى أقوالها شيئاً حقيقياً هو الصدق الجليل

إنها أروع مما كنت أحسب   إن فى نظرتها نار الغضب

إن فى أعماقها الثورة ، والحقد النبيل

جميلة : من ذا يدق الباب ..

(سرحان يقبل من الشرفة قائلا فى خوف)

سرحان : أعرفتم من ذا يدق الباب ؟ ضابط !

جميلة : (لجاسر) ابتعد .. ولتختبئ فى أى ركن

سرحان : هو ضابط شكل العرب ..

جاسر : لا .. بل قفى   فأنا سأفتح

جميلة : أنت ؟ لا .. فالبيت بيتى ..

يا جاسر ابعد

جاسر : (كقائد) افتحى .. لا تنطقى ..

(جميلة تفتح الباب وتقف فيه معترضة بينما يتحصن جاسر وراء السلم بمدفعه)

جميلة : ماذا تريد ؟

الضابط : (ما زال فى الخارج) أريد جاسر .

جميلة : ماذا تقول ؟

(الضابط عزام يدفعها ويدخل مطمئناً ويغلق الباب وراءه)

جميلة : من أنت ؟ . ويحك كيف تدخل دون إذن بالدخول ؟!

عزام : (ضاحكاً) يدك الصغيرة لا إنها خلقت تقاوم لتـُلثم !

(يتقدم فتنتزع آنية كبيرة من فخار من البهو وتحاول أن تهوى بها على رأسه فيتقدم جاسر مسرعاً)

جاسر : لا يا جميلة ! مرحباً عزام

عزام : أهلاً .. ألف مرحب ..

جميلة : (كالمأخوذة) أوَ أنت أيضاً منهم ؟

سرحان : (ضاحكاً) قد كاد يُضرَب

عزام : بل كدتُ أقتل !!

كم يحتوى هذا الكيان ـ على الهزال ـ من الشجاعة والبسالة !

(سرحان يعود إلى الشرفة ويختفى بداخلها)

جاسر : ألديك أخبار ؟

عزام : أجل . تلك الرسالة (يناوله ورقة) جاءت إلىَّ من الجبل

جاسر : ماذا بها عزام ؟

عزام : إن الباخرة   تسرى بأنواع السلاح جميعه
وبها ضمادات وأغطية وأطعمة كثيرة   وبها قنابل ناسفة
ومفرقعات

جاسر : (يقرأ فى الرسالة) تركت حدود سواحل البلد الصديق
مساء أمس الأول ..

جميلة : (لنفسها) ما ذلك البلد الصديق ؟ أمصر يعنى ؟!

جاسر : (مشيراً إليها بالانصراف) تسمحين
لم يأت بعد الوقت كى تقفى هنا .

عزام : (ضاحكاً) سيجئ هذا الوقت بعد دقيقة .. فقفى هناك !

(جميلة تنزل السلم وتقعد فى البهو والحديث مستمر)

جاسر : لابد من ترتيب تفريغ الحمولة فى أمان

حتى نرتب نقلها لمجاهدينا فى الجبل

عزام : ومتى تصل ؟

جاسر : ستكون عند الشاطئ المهجور بعد غدٍ مساء

عزام : ماذا تقول ؟! أبعد غد ؟   من ذا يجئ لنا بهند ؟

إذ أنها هى وحدها من بعدما سقطت أمينة ـ للأسف ـ

من يستطيع قيادة الفتيات فى أمر كهذا ..

أم لا استعانة بعد بالفتيات فى نقل السلاح !؟

جاسر : هذا سننظر فيه حين يعود بوحريد بعمار وهند ..

عزام : آه .. حين يبدأ الاجتماع !

(فى نبرة ساخرة)

لكن شاعرنا العزيز معذب منذ الصباح

جاسر : ماذا يعذب قلب جاسر ؟! لقد وصل السلاح

والكوميساريا كلها نـُسِفت . وإن فقدت أمينة بعدها

لكنه قدر الكفاح !

ولقد نجحنا اليوم فى الإضراب أيضاً فالمتاجر أضربت .. !

عزام : عمار يحسب أنه المسئول عن موت الشهيدة !

سرحان : (قادماً من الشرفة) لا شئ فى الطرقات

جاسر : يا سرحان .. انزل عند أختك تحت

سرحان : (بألم) طيب

جميلة : (من تحت) لا بل دعوه هناك يرقب من يجئ

سرحان : (يتراجع إلى الشرفة) نعم فلى عمل هناك
أنا هنالك لست ألعب ..

جاسر : (مبتسماً) حسناً .

جميلة : (من تحت) أأعد شاياً

عزام : الشاى ؟

جاسر : شكراً

عزام : الشاى فوراً

(تتجه إلى السلم وتبدأ صعود درجاته)

جاسر : عزام .. لم تـُقتل أمينة من شظايا الانفجار

كما يظن صديقنا عمار !   قد كان هارون الشقى وراءها

عزام : حقاً ؟! إذن ليكف شاعرنا العزيز عن النواح !

جميلة : أتفضلان الشاى بالـ ..

جاسر : (مقاطعاً) لا ، لا ضرورة بل تعالى أسدلى هذا الستار

وأطفئى النور الكبير !

(يشير إلى ستار الشرفة ، جميلة تصل الآن فتطفئ النور الكبير ولا يبقى فى المكان غير شعاع خافت ثم تذهب وتسدل الستار على الشرفة ، وتدخل من فتحة الستار لتختفى فى الشرفة مع أخيها ، وفى الشارع يظهر أحمد المصرى من وراء الخرائب يدفع أمامه هارون الذى يكاد يركع أمامه من الذعر)

أحمد : متع فؤادك كيف شئت من المكافأة العظيمة

واذهب لسادتك اللئام وقل لهم يا ابن اللئيمة :

قطعوا لسانى !!

هارون : آ ... آ ... آ ...

أحمد : انقل لهم ما شئت من أخبارنا .

(هارون يكشف عن جلده الذى دُمِغَ بكلمة جاسوس ويحاول أن يتكلم فيعوى كحيوان)

هارون : آ ... آ ...

أحمد : فى كل جلدك ميسمٌ ! اقرأه : جاسوس عظيم !

لِمَ لا تغير جلدك النجس القديم ؟

ستظل تمشى فى بقاع الأرض تحمل لعنتك

حتى تغير حرفتك !

(يتهيأ للاختفاء وراء جدار آخر وهو يدفع هارون إلى عرض الطريق)

أحمد : البث هنا حتى يعود بيير .. راعيك الكريم !

(ثم وهو ينصرف إلى ما وراء الخرائب)

يا ليت كل خطيئة كانت تسجل مثل تلك على جلود الخاطئين !

وإذن لضاع الشر ، وانتصرت فضائلنا علينا بعد حين

ولما وجدنا بعد ذلك خائنين ولا رجالاً يكذبون

ولا نساء زانيات ، أو خفافيشاً تسود ولا منافق أو حسود

ولشاه وجه الحاقدين !

(يُسمع صوت جنود فيختفى وراء جدار متهدم ، بينما تدخل جميلة من الشرفة مندفعة إلى المجتمعين فى بيتها فى ذعر واضح)

جميلة : هم قادمون

سرحان : (فى مدخل الشرفة) لا .. إنهم وقفوا بعيداً يسألون العابرين

جميلة : الآن نحن محاصرون

(صوت من بعيد هو صوت بيير)

بيير : قل أين جاسر

(سرحان وجميلة وأنظارهما على الطريق وهما فى مدخل الشرفة من فتحة ستارها)

سرحان : قبضوا على شيخ عجوز وعلى امرأة !

هم يبحثون عن البطاقة فى ثياب السيدة !

(لنفسه) دع صدرها يا كلب

جميلة : (لنفسها) هم يبحثون عن البطاقات .. البطاقة !

جاسر : عزام . اذهب أنت ! يا عزام أسرع أنت لا تفقد دقيقة !

عزام : عجباً وأنت ..

جاسر : يا عزام فلتخرج .. لتسرع قلت لك !

(عزام على السلم ويسرع بالخروج)

جميلة : الآن قل لى ما العمل !

جاسر : ألديك مخبأ ؟ أين مخبأكم هنا ؟

جميلة : (مضطربة) أنا لست أعرف إن عمى لم يقل لى أى شئ
هو لم يكن ...

جاسر : (مقاطعاً) لا بأس ، فلأخرج إليهم فى الطريق بمفردى !

(متقدماً نحو السلم)

جميلة : (بذعر) ماذا تقول ؟! أأنت تخرج للطريق بمفردك ؟!

جاسر : لو أنهم قبضوا عليّ هنا لضعتِ ، وضاع عمك

وسيفقد التنظيم بعد ثلاثةً .. نحن الثلاثة !

جميلة : نحن الثلاثة !؟ أأنا انضممت إذن إلى تنظيمكم ؟!

أوَ ذاك حق !

(جاسر يتقدم بالمدفع الرشاش تحت ثيابه)

جاسر : (مقاطعاً) سأنطلق

جميلة : بل قف ...

جاسر : سأحارب الأعداء فى عرض الطريق

لن يمسكوا بى والدماء تدب منى فى العروق !

(يتقدم إلى السلم)

جميلة : (تعترض طريقه على السلم) لا ! لا تغامر أنت !

كلا ليس أنت ! فلو أنهم قتلوك !! لا لا

(جاسر يتخلص منها وهى متشبثة به)

جاسر : إنا لنعرف كيف نفقد واحداً عند الضرورة فاتركينى ..

جميلة : لا ! لن يكون الواحد المفقود أنت ! لتختبئ فى مخدعى

جاسر : فإذا هم عثروا علىّ هناك ؟! كم سيشوهون كفاحنا الحر !

جميلة : انتظر

جاسر : لا تفسدى خططى

جميلة : اكتشفتُ طريقة . فلتنتظر !

جاسر : لا ! لا تضيعى الوقت .

(وفى أثناء هذا التدافع يكاد جاسر يصل إلى نهاية السلم فتقف جميلة أمامه عند آخر درجة تعترض طريقه بكل جسمها ، وذراعاها ممدودتان مستندتان إلى حاجزى السلم كأنما تمنعه بالقوة ...)

جميلة : إنك لن تمر ! إنى اكتشفتُ طريقة فلتنتظر !

(عزام يمشى الآن فى ثقة ليخرج من القصبة فيفاجأ بهارون الذى يتخبط فى الطريق)

عزام : هارون ؟ قف ! لتجئ معى فإذا التفتَ أو اعترضت

فسوف تـُقذف بالرصاص

(ويخرجان من أحد الدروب بينما يقبل بعض الضباط من صدر الطريق يتقدمهم بيير وفريتز)

ضابط : كل المخابئ فـُتِشت يا سيدى الميجور لكن لم نجد أحداً هناك

ضابط : هذا صحيح ! لا أثر

بيير : وأين هارون اللعين يقودنا لمكان جاسر !

أنا قلت للوغد اللئيم أن انتظرنى ها هنا !

مهما يكن فلتبحثوا فى كل جحر

هو لم يغادر هذه الكاسبا ! اقرعوا أبواب هذا البيت

(يشير إلى بيت مصطفى بوحريد فى نداء عسكرى للجنود)

سر

(يذهب فريتز مع عدد من الجنود باحثين عن باب بيت بوحريد)

فريتز : (يختفى باحثاً عن الباب ووراءه الجند)

أنا لست أعرف بابه

صوت آخر : هذا بابه

بيير : (لضابط آخر) وأنت فتش بين هاتيك الخرائب

(يذهب بيير وراء فريتز)

(الضابط ينظر باشمئزاز وخوف فى الخرائب)

الضابط : هذا يثير الخوف .. أوه ! .

لا يختفى الإنسان فى تلك الخرائب

لا يختفى أحد هنا غير الأفاعى والعقارب

(يمشى مشمئزاً)

أوه ! هذى البلاد الأفريقية !

(تسمع قرعات شديدة .. متوالية على باب بوحريد .. تفتح جميلة باب البيت ووراءها سرحان .. النور يغمر البهو وبيير وفريتز يدخلان وراءهما ضباط وجنود . بيير يتقدم فيعترضه سرحان .. بيير يركله .. ثم ينظر إلى جميلة فى رقة مصطنعة وكأنه تعرف على وجهها)

بيير : أو .. لا !! أأنتِ ؟! مع من تعيش الفاتنة !!

سرحان : (معترضاً) .. الفاتنة !؟

جميلة : مع مصطفى بوحريد عمى .. والصغير

سرحان : (متحدياً) معى أنا

فريتز : هل جاسر فى بيتكم ؟! قولى لنا

بيير : ستكافئين إذا اعترفتِ

جميلة : وكيف يحيا ها هنا فى بيتنا

فريتز : قل يا صغير فى أى حائط ؟

سرحان : أنت ضابط أنت تعرف

بيير : سنكافئك   إن قلت سر الحائط السرى

سرحان : (نافراً من بيير) لست أكلمك

فريتز : قل لى أنا

سرحان : الحائط السرى

فريتز : قل

سرحان : هو

بيير : أين ؟

سرحان : فى ألف ليلة ! أقرأتها ! أسمعت عنها !!

بيير : (محنقاً لجميلة) أين عمك ؟

جميلة : فى مغطس الحمام

بيير : أين بطاقته

جميلة : هى ذى بطاقته يبللها العرق !!

بيير : (يمسك بالبطاقة بطرف إصبعه وهو يتجه ناحية السلم ويصعد مزمجراً)

قذرون !! أولا لا ! قذارة ! أولا ! وأين المغطس الملعون

جميلة : (تصعد) من ذاك الممر .

بيير : (وهو يصعد ومعه فريتز يقول له) سنرى ..

(للجنود) وأنتم فتشوا هذا المكان بلا هوادة

قد تعثرون بجاسر الملعون تحت حشية أو خلف باب ...

سرحان : أو فى وسادة !!

بيير : (مكملاً بحسم) أو فى جدار لا   أو فى إناء من فخار

لا تتركوا شيئاً مكانه .

(الجنود ينتشرون فى الطابقين جميعاً ويقلبون الدنيا بينما جميلة التى صعدت الآن ومعها أخوها تتجه إلى بيير الذى يقف وسط الحجرة العليا مع فريتز وضابط)

جميلة : أدخل هناك من الممر ، وثم ، مل نحو اليمين

ثم اقرع الباب الذى تلقاه مقفولاً بوجهك !

(يدخل بيير فى الاتجاه الذى أشارت إليه)

بيير : (من الداخل) يا مصطفى بوحريد .. افتح

جاسر : (من الداخل بصوت متغير) كيف ؟

بيير : تفتيش

جاسر : أمهلنى لألبس

بيير : (زاعقاً) افتح

جاسر : أنا لم أزل عريان

بيير : إذن سأفتح بالمسدس

(يسمع صوت باب يفتح)

جاسر : أنا ذا فتحت

ببير : (حانقاً) اغطس

فريتز : (منادياً) يا سيدى ماذا دهاك !

ببير : (يعود مسرعاً) هذا اللعين الوغد يطلع لى كما ولدته أمه !

فريتز : هل كنت ترجو أن تراه هناك فى الحمام يرفل فى الفراك !

(ببير يرمى البطاقة أمام جميلة وفريتز يضحك)

ببير : هى ذى بطاقته الحقيرة

(جميلة تذهب بعيداً وتنحنى لتلتقط البطاقة وببير يتابعها بنظراته ، بصفة خاصة وهى تنحنى ، أحد الضباط يتقدم من ببير)

الضابط : يا سيدى الميجور جاسر ليس موجوداً هنا .

ببير : (يتقدم ببطء إلى جميلة وهو يلقى عليها نظرات خاصة)
أيكون مختبئاً هنا فى حيث تختبئ الكنوز الباهرة

(يحاول أن يتحسس صدرها فتقفز جميلة إلى الوراء)

جميلة : (تنهره) يا سيدى !

بيير : إنى لتعجبنى النهود الثائرة !

(جميلة تقفز للوراء أيضاً حتى تصل إلى حافة الشرفة وهو يتابعها)

وكذاك تجذبنى الظباء النافرة

(يجرى سرحان إلى الداخل)

(فريتز يتقدم من بيير هامساً)

فريتز : لا ! لا !

بيير : (لفريتز) أو لست تصبو أنت أيضاً للنساء المسلماتِ ؟

أنظر إليها .. إنها تبدو ككل المسلمات المحصناتِ

لكنما فى عينها شغف بلذات الحياةِ ! .

(سرحان يعود مسرعاً وهو يخفى فى جلبابه شيئاً ويقف بجوار أخته)

فريتز : لا يا بيير ! هيا ! لنذهب

ببير : ماذا ؟؟

فريتز : أتحسب أننا جئنا لهذا ؟

ببير : لست أحسب

لكن أراها فرصة والشيخ فى حمامه والباب مغلق !

(يتقدم إليها وتلتصق هى بحاجز الشرفة تماماً فى رعب هائل)

جميلة : لا

(يقبل سرحان شاهراً سكيناً طويلاً)

سرحان : فلتحترس !   إنى ليعرفنى الجميع هنا بسرحان البطل

ببير : إنما السكين طولك   هذا لتقشير البصل .

(جميلة تختطف السكين من أخيها وتشهره للدفاع عن نفسها)

جميلة : لكنه قد يذبح الخنزير

سرحان : (ضاحكاً) بل قولى الخروف ..

بيير : بالرغم مما تصنعين وما يبيح لنا دمك فأنا سأمنحك الحياة

وستشكرين بيير يوماً ما على هذا التفضل

(بيير منصرفاً)

فمتى تردين الجميل لمنقذك

فريتز : (يتجه إلى السلم) هيا تفضل

بيير : (يترك بطاقة زيارة على المائدة)

فى ذلك العنوان بعد السابعة !

من أى يوم !

(وينصرف الجنود والضباط .. فريتز وبيير أثناء النزول على السلم يتحدثان ويستمر الحديث بينهما حتى الباب الخارجى للبيت)

فريتز : هل أنت مجنون إلى حد التصور أنها ستجئ عندك ..

بيير : غداً ترى .. إن لم تجئ سأجرها بالرغم منها

أنا عندما احتللنا أرض ألمانيا ... أجل

أنا كنت فى برلين يوماً ..

فريتز : (بضيق شديد) وانتزعت من النساء كما تشاء

قد قلت هذا ألف مرة !

لكننا كنا هنالك قد تمرغنا على وحل الهوان من الهزائم والدمار !

كما انهزمنا تحت حكم الطاغية قبل ابتداء المعركة

أما هنا فهنا المعارك لا يخالجها سوى أمل انتصار !

إذ هم هنا شعب يناضل لا قطيعاً ما يساق بلا إرادة ..

أفهمت هذا ؟ إنه وطن يناضل بالرجال وبالنساء وبالصغار وبالكبار..

بالذكريات بكل آمال الطفولة فى السعادة ..

وبكل ما فى طاقة القلب الأبى من الإباء

ولكل إنسان هنا حرٌ .. أجل ! حر ؟ أتفهم !

حر أمام مصيره ، وحياته ، والآخرين

حر أمام الموت والتاريخ ! لكن كيف تفهم أنت هذا ؟

(يدفع الباب الخارجى بقدمه ويخرج إلى الشارع وتغلق جميلة وراءهم الباب)

بيير : (لنفسه فى الشارع)

هذا الفتى خطر ، سأبلغ عنه عند رجوعنا

فلقد يكون وراءه متمردون !

(لفريتز) اسمع فريتز ، لأنت مأجور هنا لا كى تفكر ،

بل لتنفيذ الأوامر !!

(يختفون فى بعض الدروب بينما يظهر جاسر فى البيت وهو يفرغ من ارتداء ملابسه ويجفف رأسه)

جاسر : (ضاحكاً) ما كان أروع كل هذا يا جميلة !

سرحان : (بدهشة) قد عاد يضحك ! هل أنت تضحك ؟

جاسر : أتظننى غولاً ؟

جميلة : (بإعجاب) أجل غول على أعدائنا

جاسر : قد كدتُ أفسد كل شئ عندما أدركت أن بيير ينوى ..

جميلة : لا ، فما قد كان يمكن أن ينالونى ، وبى رمق

سرحان : (متدخلاً بزهو) وأنا الذى دافعت عنك !

جاسر : أنت سرحان البطل !

(يضحكون)

جاسر : إنى لأشكر للمجاهدة الجديدة أنها قد أنقذتنى

جميلة : أنا ؟ لا .. ولكن المصادفة الغريبة أنقذتك

سرحان : لو كان غيرى فى مكانى لانحنى للعاصفة
لكننى أحضرت سكيناً

جاسر : (ضاحكاً) وأنا لهذا أشكرك

سرحان : لا شكر بين الأصدقاء

جاسر : الأصدقاء ؟!   وأنا سعيد بالصداقة !

(ضجة فى الخارج ، من بعيد جداً)

جميلة : أنظر تصاريف القضاء   لو أن عمى كان قد أخذ البطاقة !
لو أنه لم يملأ الحمام ماء !   لو ..

جاسر : (مقاطعاً) لاكتشفتِ طريقة أخرى .. فمثلك ليس يُغلب !

(تقترب الضجة وعمار وهند يقبلان وحين يريان الجنود يختبآن فى أحد الخرائب)

عمار : (هامساً لهند) هند .. تعالى ها هنا . فلننتظر .

مصطفى : (صوته من جهة الصدر) لا .. لا تحاول أن تشد عباءتى

جميلة : (متجهة للشرفة) أسمعت ؟ هذا صوت عمى !

(تزيح جزءاً من الستار)

جاسر : لا ! لا تطلى ، إنهم يتجولون هنا . تعالى

(يطفئ النور ويظلم البيت تماماً بينما مصطفى بوحريد يظهر فى أقصى المسرح جهة الصدر من على مرتفع وأمامه جنود يملأون المسرح هنا وهناك ... الجنود والضباط يستعملون مصابيح كهربائية صغيرة ((بطاريات)) ليتبينوا وجوه الأشخاص إذ أن نور الشارع هزيل جداً)

الضابط : (لمصطفى) بل أنت جاسر

ضابط آخر : أتظن أنك سوف يحميك التنكر ؟

جندى : هو ليس جاسر

الضابط الأول : إن ذقنك مستعارة

(يحاول أن يشده من لحيته)

مصطفى : دع لحيتى ، هى لا تمرغ فى التراب

ضابط آخر : هى ذقنه حقاً فأين بطاقتك ؟

(مصطفى يفتش عليها بينما يظهر بيير من ناحية أخرى ومعه جنود . بيير يعترض امرأة ، وهى أم أمينة ومعها ابنها الصغير)

بيير : أوَ لستِ أم أمينة أنتِ !؟

الطفل : (باكياً) لقد قتلوا أمينة !

بيير : قد كنت فى ثكناتنا مسجونة منذ الصباح فمتى هربتِ ؟

أم أمينة : لكنهم قد أفرجوا عنا وها هو أمر إطلاق السراح

بيير : (يأخذ منها الورقة) لِمَ أطلقوكِ .. وكيف ؟! هيا اذهبى

(همساً لضباطه)

هى أم من نسفت صباح اليوم دار الكوميساريا

وقضت على عشرين منا .

فتهيأوا للانتقام !

(يظهر أحمد المصرى ووراءه فريتز وجنوده)

أحمد : يا عم قل لى ما العبارة !؟

فريتز : من أنت ؟؟

أحمد : أنا أحمد المصرى ، معروف هنا ، فى الدرب كله .

ضابط : أين بطاقتك ؟

(أحمد يعطيه البطاقة)

أحمد : خذها . وأرجعها إلىّ

فريتز : (وهو ينظر فى البطاقة) من أين جئتَ

أحمد : من مصر جئت

أبى أتى من مصر من سبعين عاماً

ضابط : (مقاطعاً) من أين جئت الآن أنت !

أحمد : من عند ربى

فريتز : الشيخ مجذوب كما يبدو

جندى : نعم أنا أعرفه   هو صاحب المقهى المجاور

جندى : أرنى شواربك

أحمد : هى يا أخى ليست معارة   فأنا الذى ربيتها من نصف قرن

الجندى : اذهب لبيتك أيها المصرى

أحمد : (لمصطفى بوحريد الذى وقف فى ركن وهم يفتشونه)
احرس عيونك قبل أن يستل منها النور لص من فرنسا
أغلق مزالج بيتك المفتوح حتى لا يصير البيت رمسا

فريتز : اذهب لبيتك

أحمد : أوَ لا أكلمه إذن أوَ لستُ جاره !

(فريتز يدفعه بشدة فيختفى فى أحد الدروب وراء جدار متهدم)

مصطفى : يا أحمد المصرى ها أنذا أقول : احرس لسانك !

الضابط الفرنسى : (لمصطفى) أين البطاقة ؟

مصطفى : أنا لست أعرف أين راحت

ضابط : وإذن فإنك أنت جاسر

أم أمينة : (من ناحية أخرى لبيير)

يا سيدى أنا ليس فى جيبى بطاقة

فأعد إلىَّ الأمر بالإفراج حتى أظهره للسائلين

فإنكم تتجولون !

بيير : أنا قلت سيرى

أم أمينة : كيف !؟ الأمر لله

(تمشى أم أمينة ومعها الصغير)

بيير : اتبعوها فلتقتلوا الولد الصغير أمامها ثم أقتلوها .

فريتز : (لمصطفى) اذهب .. وحاذر أن تسير بلا بطاقة !
سر من هنا .

(مصطفى وهو يمشى بعيداً يعترضه بيير)

بيير : قف يا رجل لِمَ أنت فى وقت كهذا لم تزل فى الشارع
من بعدما مُنع التجول !

مصطفى : بل ما يزال هناك ساعة ! وأنا هنا بالقرب من بيتى

بيير : وما اسمك ؟!

مصطفى : اسمى ؟ أنا ..

(ولا يكمل إذ يفاجأ بطلقتى رصاص على أم أمينة والصغير)

مصطفى : (صارخاً) لِمَ تقتلونهما ؟!

بيير : أتسألنى !؟

مصطفى : أجل .. لِمَ يا وحوش ؟ لِمَ تملأون الليل بالدم ؟

(بدأ الناس يظهرون من الدروب على صوت الرصاص وأصواتهم تختلط)

أصوات الناس : هى أسرة فنيت جميعاً

قتلوا الثلاثة فى نهار واحد !!

بيير : (يدفع مصطفى بمسدسه) سر من هنا ! أنا قلت سر !

مصطفى : أنا ذا أسير ، فأين أذهب ؟

بيير : (يحاول أن يدفعه) اذهب لجاسر أتراك تجهل أين جاسر ؟

مصطفى : (يتوقف) أنا سوف أبقى فى مكانى هكذا حتى الصباح

بيير : أنا قلت سر

(مصطفى الآن فى أعلى مرتفع من الشارع)

مصطفى : لكننى

بيير : لا تستدر

(يقف مصطفى وظهره إليهم . بيير يطلق عليه الرصاص ، بينما يظهر أحمد المصرى من أحد الأركان ، وتظهر هند وعمار بين الخرائب ومعهما بعض الرجال والأطفال والنساء .. جميلة تصرخ من الداخل وتحاول أن تندفع فيمنعها جاسر)

جميلة : (من داخل البيت) عماه ... عمى .. !

أحمد : (مندفعاً) يا أيها السفاح

عمار : (من مخبئه يمسك بأحمد)

يا أحمد المصرى ! لا ! فسيقتلونك أنت أيضاً

مصطفى بوحريد : (وهو يسقط) أتظن هذا الشر سوف يفيدكم !

لا ! إنما تغتالكم تلك الشرور

ضابط : هل أنت حى ما تزال ؟ مت ! استرح !

(يطلق عليه مرة أخرى فيتدحرج على الأرض حتى يسقط وراء المسرح من أقصى مرتفع ويختفى جثمانه تماماً .. وهو يلقى آخر كلامه)

مصطفى : أنا مصطفى بوحريد .. بوحريد يقول لكم يقول ...

تحيا الجزائر !   العار إن لم ننتقم

(جميلة ما زالت تحاول أن تندفع إلى باب بيتها فى الظلام فى جزع شديد)

جميلة : عماه ! عمى

جاسر : (يعترضها) ارجعى فستـُقتلين

جميلة : (صارخة) لنمت جموعاً ما يهم !

جاسر : بل اهدئى ... فلسوف نأخذ ثأرنا منهم بألف !

جميلة : (وهى تحاول التخلص منه) إن مات ألف هل يعود ؟!

جاسر : (يمنعها بالقوة) وأنت أيضاً لن تعودى إن خرجت ..

جميلة : (صراخ مروع) ويلاده !! دعنى
واختبئ كالفأر وحدك ها هنا .. عماه .. عمى !

جاسر : أسكتى .. لا تصرخى !

(يمنعها بالقوة من أن تنزل ومن الخارج تحاول هند أن تندفع من مخبئها بين الخرائب . فيمسك بها عمار)

هند : هل تحكم الفوضى ؟!

عمار : هند اثبتى فسيقتلونك لا تتركى الغيظ المعذب يستفزك

(سرحان يجرى مندفعاً إلى الشارع وبيده سكين يطعن بها ظهر الضابط الذى ضرب عمه آخر طلقة . الضابط يقع بعيداً)

سرحان : عماه .... عمى .

ضابط : (يطلق على سرحان) يا أيها الفأر الصغير !

(بيير يتخذ موقف القيادة الآن ويبدأ فى توجيه القوات)

بيير : فلتسكتوهم بالمدافع .. اضرب هناك ..

يا أيها الجبناء قوموا من جحوركم ، تعالوا واجهونا

يا أيها الفيران قوموا سندمر الكاسبا عليكم

فريتز : لا يا بيير كفى كفى هذا كثير هذا جنون ! هل جننت ؟

(أصوات طلقات من كل الدروب . رجل عجوز يظهر من حيث سقط بوحريد)

بيير : (لفريتز) اهرب إذا ما شئت أنت ! .

فريتز : آه لو أنى استطعت !

نحن سفاحون مأجورون بل محترفون ! نحن فى هذا اللفيف الأجنبى

عار هذا العصر حقاً ! وبقايا من عصور الهمجية !

بيير : (لفريتز) أنا قلت اضرب .. (ويشرع مسدسه)

الرجل : ما كل هذا يا بنى .. ألا تخاف الله ..

بيير : (يضربه) خفه فقد يصونك !

الرجل : (وهو يسقط) فليعش وطنى الجزائر

بيير : (لفريتز آمراً) قف ها هنا ... اضرب ! . لتضرب !

(بعض الأولاد الذين ظهروا فى الفصل الأول يظهرون الآن ... مارين بأحمد وعمار وهند الذين اختبأوا وراء جدران ومعهم بعض رجال ونساء ... النار تتلقى الأولاد)

فريتز : (مرتكناً إلى حائط معذباً)

قد كذبوا باسمك يا ربى   الناس تموت بلا سبب

والأرض تفيض عليها النار

فلماذا تترك هذا الشر يزلزل إيمان الأخيار ؟

ولد : (للرجال المختبئين) لِمَ تختفون ؟ ألا شجاع منكم ؟

عمار : الشجاع اليوم من يملك رأيه

وفروا هذا الدم الغالى ليوم الانتقام .

(يظهر رجل آخر من أحد الدروب وعمار يمنع المختبئين من الاندفاع)

الرجل : لِمَ تشعلون النار فى القلب الأمين

ضابط : (يضربه) وما يهمك

امرأة : (تنفلت) أتركونى .. إنه يقتل زوجى

امرأة أخرى : ووحيدى

ببير : أين جاسر

امرأة : يا وحوش

بيير : (ويضرب المرأتين) لا تصيحى .. أنتِ أيضاً لا تصيحى

فلتموتى معه .. فلتستريحى

(يتجول كقائد مظفر فى ميدان معركة ثم يعود ليقف على المرتفع الذى فى صدر المسرح)

فريتز : (صارخاً) لِمَ كل هذا يا بيير .. كفى .. كفى

بيير : اضرب الآن ... تقدم أيها المرتزق الخائر واضرب !

إنـهم لن يرحموك الآن ، فاضرب

أنت إن لم تطلق الآن عليهم ستحاكم   وستعدَم !

(فريتز يضرب وهو مغمض العينين)

رجل : (من المخبأ) لِمَ يا أحمد تجبن !   أنت يا عمار خائف

(ثم يندفع بخنجره ليضرب ضابطاً)

الرجل : (مندفعاً) إن هذا الدم لن يُهدَر

ضابط : اخرس !

(امرأة عجوز تندفع وهند تحاول أن تمنعها بينما صوت رصاص يستمر والرجل يسقط)

المرأة : هو يا هند وحيدى ! قتلوه ! قتلوه !

بيير : أين هم شجعانكم ؟ الفدائيون أين أخرجوهم ينسفونى مثلما نسفوا مركز البوليس فى هذا الضحى !

المرأة : لعنة الله على مَن جر هذا كله ، ثم اختفى !

بيير : (من مكان قيادته فى لهجة آمرة للضباط والجنود)

هاتوها هنا (يشدونها ويقبلون بها)

خاطبيهم ؛ العنيهم ، والعنى جاسر أيضاً

(رجل يندفع إليها)

الرجل : أسكتى يا نذير الشؤم يا أحقر الناس جميعاً

(يضربها بسكين)

(تنطلق عليه رصاصة .. وكل الذين يسقطون تتدحرج جثثهم إلى الدروب أو من المكان المرتفع فى صدر المسرح بحيث تسقط غالباً خارج المسرح)

عمار : (للرجال الذين يحاولون الاندفاع)

الشجاع اليوم من يملك قلبه

والذى يحيا ليوم الانتقام

ما يزال الوقت مِلكاً للذى يحسن التفكير فيه

رجل آخر : (لبيير) أشجاع أنت .. ؟ بارزنى إذن وجهاً لوجه .

(ينقض الرجل على بيير من أحد الدروب ولكنه يصاب بالرصاص فيسقط فى مدخل الدرب ويتدحرج خارج المسرح . يدخل بيير فى أحد الدروب ووراءه بعض الضباط والجنود وتسمع من حين إلى حين طلقة أو صرخة من بعيد)

رجل : فى غد يأتى زمان الانتقام

(عمار ذاهل .. وأحمد المصرى مدمر وكذلك هند)

عمار : إننى أبصر من طوفان هاتيك الدماء

ذهب المستقبل الزاهى يضئ

هند : بدلاً من كل هاتيك الرؤوس الدامية

بدلاً من كل هاتيك الدماء الجارية

فى غد ، عندما يشرق فجر الأمن من رعب الظلام بالسلام

تنبت الحنطة فى كل الحقول الخاوية !

عمار : (مكملاً كأنه يحلم) ذهبيات السنابل حين يأتى الوقت

رجل : (فى انفجار يائس) ومتى الوقت يجئ ؟

أحمد : أترى من بعد هذا الهول فى ليل من الرعب مضرج

بالدم الغالى سيأتى زمن نضحك فيه ، أو سنبهج ؟!

لا سلام الآن بعد إننا نحمل مسئولية القتلى جميعاً !

كل عين لم تزل مفتوحة فوق التراب

كل أشلاء الضحايا يا صحاب كلها تلعننا .. تلعننا .

سيقول الناس عنا قد جَبُنا .. قد جبنا

فانظروا كيف جبنا !

(ينقض مسرعاً على ضابط فيطعنه على مدخل أحد الدروب ويختفى)

عمار : امنعوه ... امنعوه

(رصاصة من الداخل وصرخة أحمد المصرى)

عمار : قتلوه

هند : هو أيضاً قتلوه !

عمار : (فى صوت فاجع)

إيه يا من تخرجون الآن من جوف الليالى المرعبة

ومن الموج الرهيب لا تلومونا غداً فإذا جاء زمان

أصبح الإنسان فيه صاحب الإنسان حقاً فاذكروا

أنه لولا ما عاناه الرجال مثلنا لم يجئ هذا الزمان !

(المسرح يكاد يخلو والآخرون يتسللون من الدروب)

هند : ثم أنتم أيها الأطفال يا من تولدون الآن من جوف الليالى المرعبة

لتعيشوا فى غد خضرة الزيتون فى شمس أمان ساطعة

فى غد ... عندما يا صغارى تكبرون

لا تلومونا ولا تقسوا علينا

لا تقولوا إننا فى ذات يوم قد ضعفنا أو جبنا

ما ضعفنا ! ما ضعفنا ! ما ضعفنا

إننا نمسك من أجلكم أعصابنا

إننا من أجلكم إننا من أجل أن نصنع مستقبلكم

أنتم ، وتاريخ الليالى .. نختفى إننا لم نضعف لم نضعف

عمار : هند ! لا تستكبرى أن تذرفى الدمع اذرفيه .. اذرفى

فالبكاء الآن أفضل   إنه أولى بنا !

(ترتمى على كتفه باكية)

(جاسر فى الداخل وجميلة واجمة)

جاسر : (فى صراخ فاجع)

لِمَ أنتِ واجمة كذلك ؟ اصرخى . لِمَ تسكتين ؟

أوَ لم ترى جثث الرجال   ونبالة الإنسان تسحقها النعال ؟!

جميلة : (فى انهيار بصوت شاحب غائر له رنين كالمأساة)

أسفاه ! ....

جاسر : لم تعد الحياة هى الحياة ...

((ستار))

الفصل الثالث

المنظر الأول

(صبيحة ليلة المذبحة فى الضحى . حجرة فى بيت بوحريد ... قلعة برباروسة تبدو من بعيد كشبح رهيب ، وتبدو بعض مآذن المساجد وأجزاء من حى القصبة وجاسر يقف فى أقصى الحجرة مكنساً رأسه إلى الحائط .. عمار وعزام وهند فى حالة وجوم)

عمار : (كمن يتلو قصيدة) بالله يا ريح الظلام

عودى إلى البلد الذى أقبلتِ منه وبلغى عنا السلام

عزام : لا ... فلتبلغ ألف لعنة ..

عمار : (مكملاً) وإذا مررتِ على الحقول الخضر يا ريح الظلام

هند : (مقاطعة خشية أن تبكى)

عمار ! .. لا تكمل بقيتها فتلك قصيدة تذرى دموعى المستكنة ..

ولها رنين فاجع يبكى الأجنة .

عمار : (يكمل بلا مبالاة بنفس رنين صوته الحزين)

وإذا مررتِ على الحقول الخضر يا ريح الظلام

ورأيتِ أوراق الخميلة لا يداعبها النسيم

ووجدتِ أن الكرمة الخضراء باتت كالهشيم

ورأيتِ حبات الندى أصبحن كالدمع الهتون

فسلى الأصيل الشاحب المهزوم ، والغسق المهوم ، والمساء

وسلى الخمائل والربى ، وسلى السماء   وسلى الجنون

ماذا دهى الزيتون ؟

فإذا سمعت حديثهن عن المآسى والدماء

عودى إلى البلد الذى أقبلت منه ، وبلغى عنا السلام

بالله يا ريح الظلام

هند : كفى ... كفى ... هذا كثير

عزام : عمار لا تكمل قصيدتك الحزينة ، فهى فاجعة النحيب

عمار : أنا لم أجد كالشعر منتجعاً يريح القلب فى هذا الهجير

هند : من يوم أن ذُبح الحسين وأهله فى كربلاء

لم تأت غاشية كتلك ... ولم يكن ضوء النهار

فى مثل هذا الاصفرار ولا الشحوب

عزام : أغدوتِ شاعرة كعمار خطيبك ؟ حسبنا هذا الهراء

هذا غريب

هند : لا لا تـُهـنِى .. أمنعك

عزام : لكننا فى موقف ضنك فما جدوى البكاء

لِمَ لا نفكر فى الخلاص

أو فى القصاص

(جاسر يقف وحده بعيداً وعيناه شاردتان على القصبة المحطمة تحت قدميه)

جاسر : كل شئ باهت فى هذه الأرض معذب مستباح منتهك

هند : (على وشك الانهيار دائماً) جاسر أسكت أنت .. أسكت

(عمار ما زال فى حالة إلقاء الشعر يكمل القصيدة التى بدأها)

عمار : من لى بأحلامى القديمة .. أين أحلام السكينة

من لى بآمالى التى باتت مضرجة طعينة !

ما بال أنغام الحياة غدت مُرَوَّعة حزينة ؟

يا ويحها عبثت بها ريح الظلام !!   لِمَ جئتِ يا ريح الظلام ؟

ألتعصفى بالحب والأمل المغرد والسلام

ألتشعلى فى القلب نار الانتقام

عودى إلى البلد الذى أقبلتِ منه وبلغى ..

عزام : (مقاطعه ثائراً) لا .. لا سلام !

لا حديث الآن عن هذا السلام

جاسر : (وحيداً فاجعاً من بعيد) كل ما فى القصبة اليوم حطام

إن أعراض النساء انتهكت   إن هامات الرجال امتهنت

والذى يملأ القلب بنور الكبرياء

كله أضحى رغاماً فى الرغام

المعانى كلها قد دُمِّرَت   فكأنى بجبال سُجِّرَت !

وكأنى بجحيم سُعِّرَت   والنجوم انكدرت !

والسماء انكشطت

فإذا سرنا هناك   حيث كنا نرفع الرأس ، أحاطتنا الشراك

لا يكاد المرء يمشى خطوة إلا تعلق بردائه أو حذائه

بعض أشلاء من القلب الممزق !

عمار : جاسر ... أسكت ...

هند : دعه يا عمار .. دعه فى شقائه !

جاسر : أحمد المصرى مات   الفتى سرحان مات

مصطفى بوحريد مات

عزام : كل من نسأل عنه اليوم مات !

جاسر : مات بوحريد وما عاد يقول !

كان بوحريد حكيماً وبسيطاً وشجاعا

كان بساماً يحب الأرض مزهواً بحبه

عاش لم يرجُ من الأيام إلا وجه ربه

كان بوحريد بسيطاً وحكيماً وشجاعا ..

كان فى هذا الظلام الهائل الداجى شعاعا   كيف ضاعا !

كان يشقى لتكون الأرض حرة

ويعيش الناس إخواناً على جنح المحبة

إننى أذكره آخر مرة   عندما جاء يقول ..

(يغلبه تأثره)

مات بوحريد وما عاد يقول !

لم يكن غير مصير الناس ما يشغل قلبه

دائماً يحتضن المجهول كفاه تهزان الفضاء

رأسه مرتفع نحو السماء

شامخ ، يفتح صدره   للنسيم الطلق كى يملأ صدره

بالشذى الطيب من عطر الحقول

بعبير الأرض بالدنيا بأنفاس الحياة القادمة

بالأمانى الباسمة   كان بوحريد يقول ...

مات بوحريد .. وما عاد يقول !

مات بوحريد كما عاش عظيماً وحكيماً وبسيطاً وشجاعا ..

هند : (تنهار تماماً) أنت تبكى ... أنت يا جاسر تبكى !

عزام : أنت يا جاسر قائد   فتجلد

هند : ليس من حقك أن تبكى مثلى ، أنت رائد !

جاسر : كل هذا الهول والعالم يشهد !

دولة الصياد عادت ...

عمار : إننا نسلك للتحرير أرضاً لم تعبد

كلها صخر وأشواك وهول وسعير

عزام : غير أن الناس يمضون

هند : أجل هم يزحفون

جاسر : (مستمراً) دولة الصياد عات لا تبالى بحكيم أو شجاع .

والمسوخ الشائهات اليوم تستل النخاع

من رؤوس الحكماء

إنه عصر الأفاعى .. عصر مصاصى الدماء !!

إنما الديدان تقتات بأعصاب الفضائل !

ها هى الغيلان فوق السور حراسٌ علينا !

كل شئ شاحب من حولنا مضطربٌ لا بل وكاذب

وقمئ وزرى ! العقارب وثبت تنهشنا من كل جانب

ومعانى الحب جفت ، والخمائل سحل الذئب عليها ، والرذائل

تشكر الآن بأعصاب الوجود ! زمن الرعب يعود

ها هى الفوضى تسود

هند : (صارخة) جاسر أسكت .. إننى سوف أجن .

جاسر : (مستمراً) الخفافيش تعود !!

إنها تسحق أسراب الحمام .. وتمص الدم من قلب السلام !!

نحن فى عصر الأكاذيب الرهيبة !

هاتف الحق خرس كل نور ينطمس

وشعاع الكلمات الصادقة

لم يعد يقوى على أن يرسل الضوء إلى عقل الوجود !

لم يعد غير دخان وضباب ودنس ! الخطايا تتحدى كالبغايا

بينما الخير عجوز أبكم فيه بـَلـَـه

لم يعد فى الأرض من يسمع له !

عاد سلطان الذئاب ! نحن فى عصر العذاب

نحن فى عصر الضنى والضلالات الحسان الرائعة

هو عصر الخِرَق المرقعة !! هو عصر الخرق المرقعة !!

(عزام يتقدم فى تأثر كبير إلى جاسر ويمسك به بينما تظهر جميلة بالباب)

عزام : يا صديقى ! ..

هند : (رأسها بين يديها) أسفاه !

جاسر : (مستمراً) والحياة أصبحت مثل جدار تخبط الرأس عليه

ثم ترتد إلينا دامية دامية

عزام : يا صديقى .. يا أخى .. يا قائدى ..

(يبكى جاسر وعزام وهما يتعانقان بينما تدخل جميلة فى ثوب أسود من اليمين)

جميلة : ولماذا يخبط العاقل فى الحائط رأسه ؟!

أترى هل نسى القائد أمسه ؟

كان كالطود على القمة والأنواء تحته

وأنا فى قبضة المأساة أعوى ، وهو صامد

أتبادلنا مكانينا .

جاسر : أنتِ ؟! كيف غادرت فراشك

هند : لِمَ قمتِ ؟

جميلة : قام حتى من هم تحت التراب ! أبعدوا هذا السحاب

عن سماوات بلادى ، أبعدوه ! أطلقوا زفرتنا الحرى عليه يتبدد

عمار : (بأنين) كل يوم مائة منا يموتون

جميلة : وألف يولدون ..

أنا لا أفهم هذا ! نحن لا نبكى ! فما يبكى الرجال !

إن من يبكى هو العاجز .

عزام : حقاً

جميلة : أنت يا عزام أيضاً ؟! أنت لا تعرف إلا الضحكات .

عزام : (يقرع صدره) أوَ لا أحمل قلباً ها هنا .

جميلة : (تقاطعه) بلى ! فلتصن قلبك من هذا الهوان

(متجهة لجاسر)

أنت يا جاسر قد علمتنى أن البكاء

يطفئ النار التى فى القلب تستوصى بثأر الشهداء

(جاسر يتأمل جميلة مأخوذاً بها وهو يراها أمامه متماسكة جداً ...)

جاسر : قد تغيرتِ كثيراً .. كل هذا النضج من مأساة أمس ؟!

جميلة : إنما ينضج الناس هنا قبل الأوان

والدموع تطفئ الحقد المقدس

أنت من علمنى هذا جميعاً ..

جاسر : (متماسكاً) والذى يبدو لنا اليوم كشئ مستحيل

سوف يغدو واقعاً بعد قليل !

عزام : (بطرب) هكذا .. قد فارقتك النبرات الباكية !

هند : إن هذا صوتك الحق ، تكلم هكذا أيها القائد أكمل

عمار : إن هذا صوته يرتد من قاع المآسى الدامية

هند : هو ذا صوت البطل

جميلة : نحن نحتاج إلى ما تملك الدنيا من الطيبة كيلا نتحول
لوحوش ضارية !

عمار : نحن حتى الطيبون
لم يعد يشغلنا بعد سوى التفكير فى القتل

عزام : وفى الثأر الذى يشفى الصدور

هند : نحن نحتاج إلى شئ جديد   عمل يذهل من روعتهِ
ويضئ القلب بالعزة من عزتهِ !

عمار : هند .. قولى ما العمل ..

عزام : بل علينا الآن أن نبحث فى شحنة الأسلحة الكبرى .

جميلة : أجل

جاسر : ومتى تأتى ؟ .. غد موعدها

عزام : بل ستأتى هذه الليلة

جاسر : حقا ؟

عمار : إنـها قد غيرت موعدها

عزام : وقعت تحت يدى برقية للفرنسيين فاستبقيتها
وتأكدت بنفسى أنها سوف تأتى هذه الليلة نحو الواحدة !

هند : مرحى

جاسر : هم إذن لم يعرفوا أى شئ

عزام : مطلقاً

هند : كيف لا يخطرنا جيش الجبل أنـها قد غيرت موعدها !

عمار : كان بوحريد هو المسئول عن هذا جميعاً ..

جميلة : عجباً ! ما الفائدة ! كان لا بد له من أن يموت ذات يوم !
هو حلم وانقضى !
فاتركوا الماضى فى روعته إننا نبحث مستقبلنا

(جاسر ينظر إليها وهى تهيئ المكان للاجتماع)

جاسر : آه ! ما أروع هذا ! . فلنفكر فى الذى يخلفه !
فليكن عزام مسئول السفينة

عزام : حسناً

هند : إنما لا بد من تغطية ما بعمل
يسحب الحراس من ذاك المكان !

جاسر : هو ذا ما يشغل البال ! .. عمل عمل يرهبهم حقاً

عزام : أجل (مفكراً)
ربما ثورة أهل القصبة

عمار : لِمَ لا ندعو إلى الإضراب ؟

هند : مرحى

جاسر : إنما أنتم جميعاً حالمون !   أوَ ندعوهم إلى مذبحة أخرى !

عزام : وكيف ؟

جاسر : إنكم لا تعرفون البسطاء الشرفاء   فالشجاعة
تتخلى عن قلوب البسطاء
عندما يحتدم الطغيان فى هذا الزمان !
وهى أيضاً تتخلى عنكم !!
إنكم ترفعون العبء عن أكتافكم   ثم تلقون به فوق سواكم
من جموع البسطاء !   وتظنون بهذا أنكم
قمتم بالواجب المطلوب منكم ؟!

عزام : إيه يا جاسر ما هذا الكلام ؟!

عمار : أنت محزون كهاملت !!

جاسر : أنا لا أعرف هاملت   أنا لا أعرف إلا المعركة

والليالى الحالكة !   أنا لا أعرف إلا أننا

نحن مسئولون عن شعب يناضل

وهو بالرغم من المأساة ما زال يناضل !

وعلى قادته أن يعملوا من قبله !

فليضحوا وليكونوا مثلاً للتضحية !

فلنوجه ضربة ساحقة للذين انتهكوا القصبة أمس

ولتكن ضربتنا لجميع المذنبين   كلهم فى لحظة واحدة

عزام : إنهم لا يلتقون الآن إلا فى المعسكر !؟

جاسر : فى المعسكر ؟!

عزام : آه ! تذكرتُ ! أجل   أنا والله غبى !

إن فى حانة سيمون العزيزة

يلتقى صفوة ضباط اللفيف الأجنبى

والمظليون أيضاً ... وبيير

ومن الممكن أن نجمع من شاءت لديها

جاسر : فإليكم خطتى المقترحة

قل لها تدعُ الذين اشتركوا فى المذبحة

وليكن فى الحانة الحمراء منا رجلان   فليكن عمار أو عزام
بل عزام فى صحبة هند

عزام : كلهم يحسب عزاماً صديقاً لفرنسا

هند : وهو فى الحانات نجم متألق !

جاسر : (لهند) ولتكونى فى ثياب ساهرة .. باهرة

جاسر : (مستمراً بسرعة) وسأبقى أنا فى الخارج فى بدلة ضابط
ومعى الأخت أميـ ...

عزام : تعنى جميلة

هند : (بأسف) كاد أن يلفظ فى لهفته باسم أمينة !

جاسر : (مستمراً) وهى فى ثوب فتاة من شريدات الرصيف

جميلة : (محتجة) كيف هذا ؟ . يا إلهى كيف هذا ؟ ..

عزام : (ساخراً) أنتِ ما زلتِ جديدة

هند : قدرى وطأة هاتيك الظروف !

عمار : إنه دور نؤديه جميعاً حسبما يقتضى الموقف

جاسر : (لعزام) فإذا ما انتصف الليل تماماً

وتعالت ضجة السُكْر ، فأطلق

عزام : من يكون الهدف السامى ؟

جاسر : بيير ! قائد المذبحة الكبرى

عزام : جميل ! رحم الله بيير !!

عمار : فلترتب كل هذا مع سيمون وهند .

جاسر : (مفكراً) وليكن أمنك فى مشروع قبلة .

جميلة : عجباً ! مشروع قبلة !؟ .

عزام : هو مشروع مزيف !

هند : كيف هذا ؟ . كيف يا عمار ؟! قبلة ؟!

عزام : (لهند) لا تخافى أنتِ أيضاً ! إن عماراً فدائى عظيم !
ليس فينا واحد يطمع فى أخذ مكانه !

عزام : كل هذا بمسدس صامت بالطبع

جاسر : بعد أن يكتشفوا مصرعه سوف يفرون
فنلقاهم وهم محتشدون بالقنابل
(ثم لهند وعزام)
واهربا من باب سيمون

عزام : بعدها سوف يأتى كل حراس الشاطئ
كل بوليس المدينة

جاسر : عندها نبدأ فى تفريغ ما تحوى السفينة

(وهم يقفون استعداداً للانصراف)

جميلة : بقيت قصة هارون

عزام : أنا أنهيتها

جاسر : كيف ؟

عزام : سوف أروى لك هذا بعد حين

هند : هل خلصنا منه ؟!

عزام : بالطبع خلصنا للأبد

جاسر : (لجميلة)
غيِّرى ثوبك الأسود هذا إننا لا نرتدى ثوب الحداد

جميلة : لك حق ، غير أنى ليس عندى ذلك الثوب الذى تقترحونه

عمار : عند هند ألف ثوب فاضح ! أقرضيها واحداً .

جاسر : لا تبالغ فى الخشونة فهى أنثى ، وستغدو ذات يوم زوجتك
وهى يا عمار ليست فى الجبل
إنما تعمل فى وسط المدينة !

عمار : حسناً !! لكنكم وزعتم أدواركم   وأنا ؟!

عزام : دورك الخالد معروف

عمار : (بضيق) وكيف ؟

جاسر : اذهب الآن أعد القنبلة !

عمار : (لجاسر)

ستكون آخر قنبلة   من صُنع عمار فقد وصل السلاح

جاسر : (وهو يدفعه ليخرج)

أجل .. أجل ستكون آخر قنبلة ..

((ستار))

المنظر الثانى

(الليل على البحر .. والجبال تبدو من بعيد على جانب المسرح . شارع على البحر يليه مرقص صيفى يملأ المسرح . على اليمين من داخل المرقص باب إلى حجرة سيمون . أما الباب الرئيسى ففى أقصى اليسار وهو يؤدى إلى شارع البحر وقد كتب عليه بالضوء الأحمر بالعربية والفرنسية ((كاباريه سيمون العزيزة)) .
جاسر بملابس ضابط من اللفيف الأجنبى يتجول فى شارع البحر . المرقص لم يضئ أنواره بعد وإن كانت موائده معدة . سيمون صاحبة المرقص مقبلة من الشارع متجهة إلى باب المرقص تتوقف لتحدث جاسر وهو متنكر فى ملابس الضابط)

سيمون : هاللو .. أنت يا لـُتْنانـْت .. قل لى

لِمَ لم تذهب إلى حانة سيمون العزيزة

كل إخوانك عندى .. كلهم

جاسر : لستُ منهم .

سيمون : لستَ منهم .. ؟ لم تكن بالأمس فى الكاسبا إذن ؟

أنت لم تشترك فى ضربة الأمس ؟

جاسر : أنا ؟ لا

سيمون : فاتك الليلة شئ لا يقدر حفلة لا تتكرر

فأنا أحتفل الليلة بالأبطال حفلاً يبهج القلب ويبهر .

مع هذا فتفضل أنت   اذهب

خذ مكاناً عند سيمون العزيزة

(تنصرف مسرعة متجهة إلى أقصى اليسار حيث باب المرقص بينما جميلة تقبل من الناحية الأخرى من الشارع فى ثوب سهرة ومعها حقيبة يد كبيرة . جميلة تمشى إلى جاسر الذى يقف الآن بعيداً ناحية البحر)

جاسر : أحملتِ رسالة عمار ؟

جميلة : خذها الآن

جاسر : فيما بعد ..

جميلة : أنا يا جاسر مضطربة

جاسر : ولماذا ؟

جميلة : هذا الدور .. بثوب يكشف عن نحرى

جاسر : أنا أيضاً لستُ بسفاح محترف أو ذئب القصبة

لكن ظروف معاركنا تقضى يا أخت بما يجرى

وقضاء معاركنا لا غير يشكل دورك أو دورى

جميلة : الليل رهيب

جاسر : فى الليل أحس بأن يدى أقوى وبأنى فى وطنى حقاً

(جميلة لا تجيب فيسألها فى حنان)

جاسر : أوَ خائفةٌ من حمل القنبلة ؟

جميلة : أنا ؟ لا .. بل تعبة

جاسر : (فجأة) أوَ لا يحمل قلبك لى شيئاً من حقد أو ..

جميلة : (تقاطعه) لِمَ تحسب هذا ..

جاسر : أنا لا أدرى لكنى أشعر أحياناً أنى المسئول عن القتلى

جميلة : لا شك فإنك قائدنا أنت المسئول عن الثأر .

جاسر : أنا أعنى تبعات أخرى تبعات دم الشهداء ..

دم الأطفال يموتون وأنا مختبئ فى وكرى

جميلة : يا جاسر

جاسر : أحياناً ينهشنى ألم

جميلة : أمسك ... أمسك ..

(ضابطان يمران .. يستدير جاسر وجميلة ويعطيان وجهيهما للبحر . جاسر يمد يده ويضعها فى ذراع جميلة وهى تمد يدها لتمسك بيده كأنهما فى وقفة غرام فيتلكأ الضابطان)

الضابط الأول : (لجاسر) ذوقك حلو يا لتنانت

الثانى : (لجاسر أيضاً) ما أبدع صيدك ... ما أبدع صيدك

(جاسر لا يلتفت فيقرعه على ظهره)

الأول : مسلمة ؟

الثانى : ما أسعده هذا الوغد

الأول : (يخبط جاسر على كتفه) كيف ظفرت بها ؟

الثانى : دعه

(يمشيان قليلاً وهما يقولان)

الثانى : لماذا لا نأخذها منه

الأول : وكيف بربك ؟

الثانى : فلنضربه على النافوخ   بكعب مسدس
فيدوخ ونأخذها منه

الأول : سيقال فدائى ضربه

جاسر : (يلتفت بغتة ويفاجئهما) أيليق بنا هذا ؟

(يختلط صوت الضابطين بعد المفاجأة فى محاولة للضحك)

الأول : لا ... لا تغضب ..

الثانى : كنا نمزح ..

(يذهبان فى اتجاه باب الملهى وعندما يختفيان يلتفت جاسر)

جاسر : هل خفت ؟

جميلة : لا .. أنا لم أخف إلا عليك

جاسر : هل أنت غاضبة لأن يدىّ عانقتا يديك ؟

جميلة : إنى لأعرف أنه دور نكابده

جاسر : صحيح

جميلة : لِمَ يشعر الإنسان حين يحفه خطر رهيب
أن الحياة جميلة ، وكأن فى أعماقها سراً تبوح به لنا

جاسر : غريب

جميلة : فى الليل نشعر أننا أهل البلاد
وسادة الأرض الحنية والجبال

جاسر : حقاً وأن سواعد البسطاء تمتلك المصائر

فى الليل نشعر أننا أهل الجزائر

جميلة : ومتى نشعر فى النهار بمثل ذلك ؟

جاسر : عن قريب

البحر والظلمات والصمت المروع والمخاطر

كم ذا تثير من الخيال !

(النور يسطع الآن داخل المقهى الصيفى ، حيث تبدو الموائد بوضوح . عزام وهند على مائدة .. الضباط يدخلون من الباب الرئيسى الذى على يسار المسرح .. كلهم من الضباط الذين رأيناهم فى مذبحة القصبة وهم الآن يتناثرون على الموائد يتحدثون ويتضاحكون . الضابطان بيير وفريتز يجلسان على مائدتين متقاربتين وعلى مائدة أخرى بعيدة يجلس قائد المظليين ومعه اثنان من المستوطنين .. بالقرب منهما يجلس صحفى فرنسى ومعه صحفى أمريكى .. الموسيقى تتصاعد فى هدوء من الملهى والراقصات يرحن ويجئن أو يجلسن إلى هذه المائدة أو تلك .. جميلة وجاسر يتأملان الملهى من مكانهما على البحر)

جميلة : هم يبدأون الآن ..

جاسر : أنا لا أرى سيمون بينهم

جميلة : الأخت هند هناك فى ثوب قشيب

(فى الملهى عزام يميل على هند كأنه يقبلها)

جميلة : (ساخطة وهى تنظر إلى الملهى)

عارٌ على عزام يوشك أن يقبلها

جاسر : اطمئنى .

جميلة : أنظر إليها ... إنها احتدت على عزام

جاسر : (بخطورة وثقة) دستور الجهاد يحمى تقاليد البلاد

جميلة : بالطبع .

جاسر : (مستمراً) كل مجاهدة هى بنتنا أو أختنا أو أمنا

مهما ترى فلتطمئنى ، فالفضائل سائدة

(ترتفع الموسيقى ، ويقوم بعض ضباط فيملأون الحلبة بزميلاتهم فى الرقص والضوء يخفت)

جاسر : فلنبتعد كيلا نثير شكوك إنسان هنا

جميلة : فلنبتعد

(يختفيان)

ضابط : (من داخل المرقص يعترض راقصة)

أوَ تعرفين ؟ لأنتِ أجمل من رأيتُ من النساء

فى ثغرك الظمآن ، فى عينيك ، فى نهديك يضطرم النداء

(القمر يرتفع الآن وكأنه يبزغ من أعماق البحر)

الراقصة : هذا كلام قد سمعناه هنا مليون مرة ...

إنى لأعرف صنفك الثرثار .. يحلم بالمسرة

لكن يضيع الوقت فى غزل سخيف لا يفيد

(يمسك بيدها)

الضابط : لا تذهبى .. لتكلمينى

الراقصة : (واقفة) فلنفتح الشمبانيا لى أولاً ..

فريتز : (يمسك بيد الراقصة فتتجه إليه)

عندى هنا شمبانيا فتفضلى ...

(الموسيقى انتهت الآن من العزف ، وكلهم يعودون إلى الموائد وعندما يجلس الفتاة تصفر نفس اللحن الذى انتهت الموسيقى من عزفه)

فريتز : ما ذلك النغم الجميل ؟ أمن أناشيد الرعاة ؟

الراقصة : أنا لست أعرف .. إنه لحن قديم من فرنسا

كانت تردده الشفاه أيام كنا فى المقاومة المجيدة

(تصفر بقية اللحن)

فريتز : إنى لأذكر أنهم كانوا هنالك فى السجون يرددونه .

بيير : (لجاره مشيراً إلى فريتز)

أعرفت ماذا يقصد المأفون من هذا الكلام ؟

هند : عزام ... إنى خائفة

عزام : (يحاول أن يضمها) فلتحتمى بى

هند : هذا العناق بكل لهفتك الغريبة ليس يلزم للمهمة

عزام : (غاضباً) أنا من يحدد كل ما هو لازم ..

بيير : (لفريتز) لِمَ جئت فى حفل كهذا يا فريتز ..

أأنت من أبطالنا ؟

إنى لأعجب

قد كنت فى الكاسبا مساء أمس مذعوراً كأرنب

فريتز : قل يا بيير ... أتذكر الحرب الأخيرة يا بيير ؟

أتذكر الشهر الأخير ؟

بيير : آه .. حين جن زعيمكم ذاك الذى قد كان يدعى الفوهرر !

فريتز : بل عندما عُيِّنتُ قائد معتقل فى غرب باريس .. أتذكر ؟

بيير : افخر بسطوتك القديمة بالشجاعة يا بطل .

فلقد رأيتك أمس فى الكاسبا تموت من الهلع

وتنافق المتمردين المسلمين بلا خجل

وبكل ما ملك الجبان من الوجل .

قد كنت تضربهم وهم مثل الدجاج

وأنت يرعشك الفزع .

زميل : (لفريتز)

بل لم يكن فيما جرى بالأمس شئ ما يدل على الشجاعة

فريتز : لا تزهُ أنت بما جرى بالأمس ، وأذكر منذ شهر أو أقل

إنى رأيتك فى المصحة تستميت من الضراعة

وجميع جسمك يرتعد

لما دنا منك الطبيب بإبرة لك فى العضل

بيير : (ضاحكاً) يا وغد .. قد كانت طبيبة !

(فريتز يضحك)

فريتز : أجل ... أجل

بيير : اضحك فإنك لست تفهم رعشة القلب الطروب

أمام سلطان الجمال

زميل : (لفريتز) وكذاك يرتعش الرجال

(ضحك)

فريتز : أزرية ّ هى مثل رعشة ذلك البطل الفرنسى القديم ؟

قد كان فى العشرين يخطر رغم ذلك فى المهابة والجلال

فى غرب باريس أتذكر ؟ أم نسيت المعتقل ؟!

بيير : (بغيظ) لا يا فريتز ! .. لتحذر !

فريتز : (مستمراً) ما كنت أنوى أن أعذبه ولكنى عرضت عليه

آلات العذاب .

وفجأة لعق التراب وقبل أن أستجوبه

انهار يبكى ، ثم سلمنى رؤوس صحابه .. كل الصحاب

بيير : (يقف مهدداً) ماذا تقول ؟

فريتز : من بعد ذلك عاش محترماً ليسخر من هزيمة سادته

اسخر كما تهوى فلن أنسى هوانك يا بيير .

(يمسك بيير زجاجة شمبانيا لينقض على فريتز ويتماسكان ويثور الصخب)

بيير : أتعرف من أنا يا مرتزق ؟!

فريتز : ومن أنت قل لى ؟

بيير : ستعرفنى يا فريتز الحقير

فريتز : (بهدوء) أنا لست أنساك ، فاركع أمامى كما كنت تركع ..

(القائد يقبل ثائراً ويفرقهما بشدة)

القائد : هذا كثير   فريتز ، بيير ، ألا تخجلان ؟
بحق السموات .. ما تصنعان ؟!

بيير : لقد كان يشتمنا كلنا   وكان يهين فرنسا هنا !

فريتز : أنا كنت أشتمه وحده .. معذرة سيدى القائد

القائد : أأنت فرنسا

بيير : معذرة سيدى القائد

(يعود القائد إلى مائدته حيث اثنان من المستوطنين يتحدثان)

المستوطن الأول : أهم دفعوا ثمناً مغرياً ؟

الآخر : للمزرعة ؟ أجل .. عشر أضعاف ما تستحق

غداً أشترى مصنعاً فى شمال فرنسا وقصراً منيفاً وضيعة ...

المستوطن الأول : حكومة باريس مسئولة فقبضتها لم تزل واهية

ومهما تُبِـد من قرى أو مدن

فليس لنا بعد أن نطمئن

فلابد من ضربة قاضية تبيد بها الكل .. كل العرب

القائد : أنا فى عجب فأصحابنا الأمريكان الكرام

يمدونا بالسلاح الكثير لتثبيت أقدامنا ها هنا

ولكنهم يسحبون الأراضى من تحت أقدامنا دائماً

بما يدفعون لها من ثمن ! ألا إنهم يرثون الجزائر !

المستوطن الثانى : أجل إنهم يرثون الجزائر !

(على مائدة مجاورة صحفى فرنسى وآخر أمريكى فى مناقشة)

الفرنسى : (للأمريكى) لا إنما يرث الجزائر أهلها حتماً .. أتفهم ؟

قد تشترون الأرض والبترول أو بعض المناجم

لكن هذا لن يدوم لأنهم فى ذات يوم سوف ينتزعونه منكم ومنا .

الأمريكى : أوه . هذه الأفكار ؟ أنت إذن ..

الفرنسى : (مقاطعاً) أجل

الأمريكى : لو كنت فى تكساس لم تفلتك لجنة أمنها
ولما قدرت على الكتابة على الصحف
ولما قدرت على التوظف !

الفرنسى : (يقاطعه) ولمتُ جوعاً أو خضعتُ لحكمها !
إنى لأعرف كل هذا العار ... أعرف !
حيث احتكارات الصناعة تشترى شرف الرجال

المستوطن الأول : فلتشربوا نخب الرحيل .. غداً سأرحل

القائد : لا لا .. محال !

المستوطن : عمال أرضى كلهم رفضوا العمل
إلا إذا ما كنت أدفع حصة للثائرين .
كيف السبيل إذن ؟ أجب ! ألديك حل ؟

أتراك تزرع أنت لى أرضى بجيشك ؟

أم سوف أزرعها أنا بيدىّ ؟ .. قل !

الصحفى الأمريكى : (متدخلاً) يا سيدى ..

هل ثار عمال الزراعة فى ضياعك ؟

نفس المستوطن : من أنت ؟

الصحفى الأمريكى : أنا من بلاد الأصدقاء

مندوب ذى سكاندال .. من تكساس

القائد : ما هذه أيضاً ؟

الصحفى : مجلة

المستوطن : حسناً

الصحفى : (للمستوطن) أتسمح لى ببعض الأسئلة

المستوطن : اسأل .. ولكن لا تثر لى مشكلة

(يقوم الصحفى الأمريكى فينتقل إلى مائدة المستوطن)

الصحفى الفرنسى : (ضاحكاً)

اذهب ولا تسأله عن أثر الكوكاكولا بمعركة الجزائر

الأمريكى : (للمستوطن)

قد كنت تشكو سيدى إضراب عمال الزراعة فى ضياعك .

أتظن أن يد الأجانب حركتهم ؟

المستوطن الأول : لا ، لا أجانب ها هنا ،

إلا إذا ما كنت تحسبنا أجانب

القائد : (محذراً) ماذا تقول ؟؟

المستوطن : ألا ترى ؟ يا سيدى الصحفى فى هذا كفاية !

اذهب .. سل المسيو ديجول !

الصحفى : أتحب زوجتك الحرير ..

المستوطن : (لنفسه) ما دخل هذا بالسياسة ؟

الصحفى : أعنى أتهوى النايلون الشفاف فى قمصانها

المستوطن : (متحرجاً) ماذا ؟

الصحفى : (مستمراً) أم أنها تهوى حريركم ، الفرنسى الرقيق
ماذا تفضل أنت عند عناقها ؟

الصحفى الفرنسى : (ضاحكاً) سل من يعانقها
فماذا يعرف المسكين عن قمصانها

المستوطن : (هائجاً) ما دخل هذا بالصحافة ؟ لن أجيب !

الصحفى الأمريكى : المعذرة .. باى باى [2]

(ينسحب إلى مائدة الصحفى الفرنسى)

الصحفى الأمريكى : (للصحفى الفرنسى)
فلنذهب لمكان آخر الحر شديد
ورطوبتكم لا تحتمل ..

---

[2] باى باى : التعبير الأمريكى المعروف وهو بمعنى إلى اللقاء . وهو اختصار عبارة جود باى Good bye وهى بدورها اختصار عبارة God be with you أى ليكن الله معك .

الفرنسى : أتريد مكاناً بالتكييف

الأمريكى : (وهو يقوم) هذا أفضل

الفرنسى : فلتتفضل

(يتركان نقوداً ويخرجان ، بينما ترتفع الموسيقى مؤذنة ببدء رقصة)

عزام : ستبدأ رقصة سيمون .

هند : لم تنتصف الليلة بعد !

(تظهر سيمون على ضجة موسيقى فى ثياب الرقص والنور يخفت يرتفع ضجيج الضباط يشاركهم عزام)

أصوات : سيمون ! . أهلاً سيمون برافو .. برافو . هاللو سيمون

(سيمون تحييهم بانحناءة وتبدأ رقصتها السريعة وهى تتكلم أثناء الرقص فتدفع ضابطاً يتأمل ما تعرى من جسدها)

سيمون : فيران الحجرة يا مجنون ترى من هذا الجسد البض

خبايا لست تراها الآن

(للآخرين) فلا تضنوا أعينكم بعد

(لآخر) أقعد (لثالث) وأنت كذلك لا تركض

عزام : (هامساً لهند) سوف أقبلك الآن وسأضرب

هند : كيف ؟ .. لقد بدأت سيمون مبكرة عن موعدها

عزام : سأضرب قبل فوات الوقت

هند : (محذرة) جاسر لم يظهر بعد

(سيمون تنتقل بسرعة بين الموائد)

ضابط : (يلمسها) هذا رائع

سيمون : (منفلتة منه) ممنوع اللمس

ضابط آخر : لا تفسد رقصة سيمون

سيمون : لم تدفع شيئاً كى تلمسنى .. إنك مدعوٌ كى تشهد !

بيير : وأنا كم أدفع لعناقك ؟

سيمون : حياتك لا تكفى ثمناً

فريتز : وأنا كم أدفع من أجلك   لتكونى ملكاً لى وحدى

سيمون : ليدفع لك من يمتلكك !

بيير : برافو سيمون .. اقتربى

سيمون : (مكملة لفريتز) فإنك عبدٌ يا مسكين

(ثم لبيير) ولستَ بأكثر حرية

القائد : (ضاحكاً) أهانت فيك فرنسا

بيير : لا ...

فريتز : لِمَ لا ...

بيير : سيمون فرنسية

القائد : رفقاً بهم يا سيمون

مستوطن : لا تهتم

المستوطن الثانى : دعها تتكلم

فنحن نحبك يا سيمون بأشواكك

سيمون : لأنك تجنى الشوك ؟

المستوطن الأول : أنا ؟

سيمون : إنك لا تدرى

فالورد الفاخر فى بستانك يقطفه رجل غيرك !

المستوطن : (للقائد) ماذا تعنى

سيمون : أعنى امرأتك ..

القائد : لقد فضحتنى المجنونة

فريتز : (لزميله) أتشارك قائدهم فى نفس الكوب ؟

زميله : قل البئر

(الموسيقى تسرع وسيمون تترك الموائد وتقف فى حلبة الرقص لتكمل رقصها وفريتز يتقدم نحوها)

ضابط : أقعد يا فريتز

فريتز : لماذا تبتعدين الآن ؟

سيمون : (من مكانها)

لأنك تحيا فى ماضيك وتصاحب أتعس أفكارك

صاحب يومك يا مسكين .. ومتع نفسك بالحاضر .

(تسير على نغم الرقص تجاه مائدة بيير . فريتز يتعرض لها بينما الساعة تدق الثانية عشرة فتلقى سيمون على عزام نظرة خاصة)

هند : انتصف الليل

عزام : سيمون لم تخطئ أبداً .

(سيمون متجهة إلى بيير)

سيمون : اشرب أيامك يا مسكين فقد يشربها منك الدود !

عزام : (بخطورة) يا هند

هند : (تعانقه) أتت اللحظة !

عزام : حسناً دارينى فى القبلة ..

هند : (وهى تعانقه بعصبية) اضرب

(سيمون تشير إلى أحد خدم الكاباريه)

سيمون : فلتطفئ هذا النور

(تطفأ الأنوار تماماً ولا يسطع إلا ضوء القمر)

سيمون : الآن سأرقص فى ضوء القمر الحانى

(وهى تتعرى من بعض ملابسها على أنغام الرقص)

لا يغمس أحد نظرته العطشى فى جسدى العريان

هند : ما أروعها وشعاع النجم غلالتها

فريتز : (تستخفه النشوة والحزن)

لِمَ لا تصبح أيامى كعصور اللذات الأولى

لا حرب ولا دم ، بل خمر ، خمر ونساء وغنى !!

(تتقدم سيمون إلى مائدة وتنحى ما عليها من كؤوس وزجاجات بلا مبالاة وتثب عليها لتكمل رقصتها كغجريات الزمن القديم)

سيمون : سأقدم أبدع ما رأت العين

ببير : ما اسم الرقصة ؟

سيمون : المذبوحون

القائد : هزتها أمس بطولتكم فى الكاسبا فابتدعت رقصة

فلنشرب نخب الأبطال

(يقدم إليها كأساً وهى واقفة على المائدة)

سيمون : (ترفع كأساً) نخب الأبطال .. نخب القائد

القائد : (يرفع كأسه) فلنشرب نخبك يا سيمون

(يفسحون لها الموائد مما عليها وتقفز عليها وهى تتعرى شيئاً فشيئاً)

ضجيج الضباط : برافو سيمون ! أولا سيمون ! سيمون !

سيمون : والآن ليمسك أنفاسه كل منكم يا سادة وليترك كأسه

كانت تاييس إذا رقصت يهتز لها وحش الصحراء

والبحر بروعته يجثو لتحيتها ويغنى الماء

فريتز : (يصيح) كانت أيضاً تهتاج الراهب فى ديره

ضابط آخر : لا تتكلم

بيير : هذا كله   من عشر قرون

سيمون : (تقفز على مائدة أخرى وتعد الموجودين بإصبعها)

كم قرناً ينظر لى الآن من هذا الموقع ؟ عشرون ..

(ضحك صاخب)

أصوات : أجل عشرون .. أجل عشرون

(فى خلال الضجيج يطلق عزام على بيير وهو فى نفس الوقت يتظاهر بعناق هند . سيمون تقفز إلى الأرض وتنحنى أمام الموائد معلنة انتهاء الرقصة وتقف أمام مائدة عزام)

سيمون : (لعزام) هنا .. ضعه هنا ...

(سيمون تنحنى وعزام يسقط المسدس فى صدرها بسرعة وتجرى هى إلى الداخل من باب اليمين)

هند : (همساً) شكراً سيمون

جار بيير : (يهزه) بيير .. بيير .. ألم تعجبك ؟

ضابط آخر : (صارخاً) دمه ينزف

(يظهر جاسر وجميلة على شارع البحر)

جاسر : هاتى القنبلة .

(جميلة تسلمه الحقيبة)

جميلة : الله معك

(هرج فى المرقص)

فريتز : فى الرأس نزيف

ضابط آخر : أين التليفون ؟ أدعو الإسعاف

القائد : انقله لحجرة سيمون

(بعضهم يحمل بيير إلى الداخل من باب اليمين الذى يفضى إلى حجرة سيمون)

المستوطن : هجم الثوار ذئب الكاسبا جاسر جاء .

المستوطن الثانى : فليرحمنا الله جميعاً .. الرحمة ..

(يجرى إلى الخارج ووراءه المستوطن الآخر من باب المرقص الرئيسى على اليسار)

القائد : لا يبرح أحد موضعه واستدعوا النجدة بالتليفون

أصوات : أين التليفون

عزام : (صارخاً) استدعوا حراس الشاطئ .

القائد : استدعوهم بالتليفون

عزام : واستدعوا كل البوليس السهران الآن .

جاسر : ضحايانا نفضوا الأكفان   وقاموا الآن

ثبت أيدينا يا رحمن

(ويتدافعون نحو الباب الخارجى والقائد وراءهم . فيتلقاهم جاسر بالقنبلة فتدوى والدخان يملأ المكان .. سيمون تأتى صارخة بينما يختفى جاسر وجميلة)

سيمون : ما هذا ؟ .

(خادم يأتى مسرعاً)

الخادم : يا سيدتى لم يُنسف إلا باب المرقص والمدخل

سيمون : أأصيبت إحدى فتياتى أو أحد منكم

الجرسون : لم يسقط غير الضباط وكلهم تحت الأنقاض الآن

عزام : وبيير .. ؟

الجرسون : لم يمت الميجور بعد فقد حملوه لحجرة سيدتى

وهناك تسيل دماء الميجور كالنافورة .

سيمون : عد أنت إليه ..

(يخرج ويسدل ستاراً على الجثث التى وقع بعضها ناحية الباب إلى يسار المسرح)

عزام : (يعطى سيمون أوراقاً مالية) سيمون خذى

سيمون : ماذا ؟ أتعاب ؟

عزام : شئ رمزى للشكر

سيمون : (وهى تأخذ النقود وتفحصها) رمزى ؟

مائتا ألف فرنك !

هند : (بحرج) هو ليس يناسب مجهودك لكنا فقراء جداً

سيمون : (ساخرة) مجهودى هذا ليس يباع بمليون ..

أنا لست أقدره بثمن

هند : (تخلع خاتماً من يدها) خذى هذا أيضاً منى

سيمون : أبقى الخاتم يا طفلة

عزام : سيمون !

سيمون : أتعرفنى حقاً ؟

(تقذف الأوراق المالية فى وجهه)

عزام : (وهو يجمع الأوراق المالية)

معذرة يا سيمون أنا لم أقصد

سيمون : (بانكسار) إنك لم تخطئ أنا بعتك يوماً ما تطلب

هند : أنتِ ملاك يا سيمون ...

سيمون : ما كان ليعرفنى عزام   لو كنت ملاكاً يا هند

عزام : سيمون .. كفى فلنتصالح

سيمون : لم أصنع هذا من أجلك

عزام : سيمون لماذا نتشاجر ؟

سيمون : (مستمرة) من أجل فرنسا ما أصنع

من أجل القيم الفاضلة الممتهنة فى وطنى الضائع

هند : سيمون

سيمون : غريبٌ منى هذا القول

ودفاعى عن قيم الشرف هذا أغرب

هند : (فى خجل) لم أقصد هذا .. معذرة

سيمون : لا تعتذرى يا هند فأنا لا أغضب

من كانت مثلى لا تغضب

عزام : سيمون .. كفى ..

سيمون : (مستمرة بتأثر) لكن هل حتمٌ أن يدفع رجل ما لمثيلاتى

ثمناً عن أية قطرات من عرق يُبذل !؟

لكأنا نعمل فى مصنع !

عزام : سيمون

سيمون : أسكت أنت ماذا تعرف عنى أنت ؟

الراقصة تبيع الحب بسعر مرتفع جداً ؟!!

لكنك لا تدفع بعد !

هند : سيمون ! لماذا !

سيمون : أجرحت حياءك يا هند قد كنت أشد حياء منك

على أنى أعتذر إليك

وكنت كأسعد ما حلمت بالعيش فتاة يا هند !

(تشرد) من سبعة أعوام ذهبت

(لعزام) أسمعت بهذا من قبل ؟

كانت أيامى كالأحلام وكنا أسعد زوجين

وذات صباح طلبوه للحرب

هند : هنا ؟

سيمون : فى أقصى الشرق ! هنالك فى الهند الصينية
تحت شعار متألق
دفاعاً عن شرف فرنسا ..

عزام : فمضى المخدوع .

سيمون : (مستمرة) وكنت أنا أيضاً أحلم أن حبيبى سوف يعود
كالبطل الفرد المغوار يعلوه إكليل من غار
وكنت أقول لطفلتنا ...

هند : (تقاطعها) أوَ لم يرجع !

سيمون : يا للعار ! طرقوا بيتى فى صلف مخدوع خادع
بكلام عن شرف التضحية الكبرى .. والتاريخ
ومسئوليات فرنسا !
لم أفهم إلا أن حبيبى مات هناك
وبعد ليال وليال صرفوا لى راتب شهرين تعويضاً عنه !
تعويضاً عنه ؟ عن حبه ؟ تعويضاً عن كل حياته !

عن آماله عن مستقبلى المنهار   وعن يتم الطفلة ! يا للعار !

تعويضاً عنه ؟! عن رقته ومودته ، وسعادتنا

وشعاع يسطع فى عينيه

عن كل حياتى غاصت منى   فى وحل الأدغال هناك

عزام : سيمون كفى .. قد أوشك دمعك أن ينهل .

سيمون : أنا لست الآن أبيعك من ضحكاتى فى مخدع حب !

فاتركنى أنت !

هند : فلنتجنب تلك الذكرى يا سيدتى

سيمون : (مستمرة) وبعد ثلاثة أعوام هزمتنا الهند الصينية

وقرأت كلاماً آخر   عن شرف فرنسا الأفريقية !

وقرأت كذلك أن ملايين البسطاء هنا وهناك

وحتى فى وطنى نفسه   حتى الدهماء

كانوا يعتبرون فرنسا قد شنت فى الشرق الأقصى

ما يدعى بالحرب القذرة !

ويسمون ضحايانا الشهداء هناك : خرافاً سيقت للمذبح !

أو همجاً سفاحين سطوا بالبغى على أرض حرة !

وذكرت فرنسا المحتلة !

أمات ضحايانا الشهداء تشيعهم لعنات بلاد محتلة

كضحايا النازى فى وطنى ؟

هل زوجى المسكين هذا استشهد فى اللعنة ؟

وأنا ؟ هل زوجة سفاح أم زوجة بطل مستشهد ؟

ودموعى وفجيعة قلبى فيه ؟

أجنون كانت أم حكمة ؟

ويُتم الطفلة من بعده ؟ هل كان كذلك أكذوبة !

وذهبت للمسئولين وشكوتُ لهم أنى بعتُ ما فى البيت لكى نأكل

والطفلة تمرض مع هذا من سوء التغذية .. فقالوا

هند : لكم عانيتِ !

عزام : أجل

سيمون : (مستمرة) قالوا لى : هى بنت بطل حقاً

لكنا نحن خسرنا الحرب

وعلينا أن نحتمل الوضع !

فبصقتُ عليهم ومضيتُ للشارع أصرخ فى الناس :

فليسقط تجار الموت ، فليسقط صناع الياس !

ورمونى فى السجن شهوراً ولما حُرِّرتُ أخيراً

وجدتُ الطفلة قد ماتت !

هند : المسكينة !

سيمون : (تتماسك وتبدو امرأة قوية)

لكنى الآن هنا أغنى من كل القواد فقد

صممتُ على ألا أعرف هذا الجوع اليائس بعد

عزام : سيمون ...

سيمون : ولكيلا يحدث لامرأة أخرى ما عانت سيمون

فتعرف بعد فوات الوقت مصيبتها .. وخديعتها

وأن المسئولين هنالك من أعرق تجار الدم

فأنا الآن هنا معكم

دفاعاً عن شرف فرنسا ومصير الزوجات جميعاً ..

ودفاعاً عن أطفال فرنسا ..

عزام : هل ما زالت سيمون الحسناء تخاصمنى للآن

سيمون : (تضحك بمرارة) أنا كالجيفة

حيث أكون تحلق من فوقى الغربان

وتنبت من حولى الديدان !

لكنى أعشق عزاماً من بين جميع الغربان

عزام : أوه .. يا سيمون !

هند : (لعزام همساً) عزام أتذهب أم تبقى ؟

إن الإخوان لينتظرون على الشاطئ .. وسيبدأ تفريغ الشحنة !

عزام : (ينظر فى ساعته) هو ذا موعدهم بالضبط

مُسِّيتِ بخير يا سيمون

(يتجه إلى اليمين مسرعاً)

سيمون : لا تنس الليلة يا عزام .. عندى فى البيت

عزام : (هامساً) لا ليس الليلة

سيمون : (تزعق بسوقية)

لا تهرب منى مثل الأمس وتتركنى أتلظى وحدى منتظرة

عزام : هند تسمعنا يا سيمون وقولك هذا يخجلها

سيمون : هند طفلة   هى لا تفهم هذا الشئ

(يمضى عزام وهى تكمل مقبلة ناحية هند)

سأعود بهند للكاسبا

هند : بل إنى أنتظر الساعة أختاً منا

ستجئ إلى هذا الشارع فلدينا أعمال أخرى

سيمون : فلتأت صديقتك الأخرى معنا كى لا يعترض طريقكما أحد

هيا للعربة

فى العربة تصريح السلطات بأن تتجول طول الليل هيا هيا .

(تظهر جميلة من شارع البحر)

هند : لا .. لا .. كيف ؟!

سيمون : هند أجيبى بصراحة

أيسئ إلى سمعتك وجودك فى سيارة راقصة مثلى يا هند

هند : (بانفعال وهى تعانقها) لا .. لا .. سيمون !

(يتعانقان والسفينة تظهر فى الأفق الداكن من بعيد وجميلة تنادى هامسة)

جميلة : هند تعالى يا هند !

((ستار))

الفصل الرابع

المنظر الأول

(فى بيت جميلة . حجرة متواضعة الأثاث . هى نفس الحجرة التى رأيناها فى الفصل الثالث . جميلة وحولها أربع طالبات . الجميع فى ثياب المدرسة . الوقت بعد الظهر بعد مرور نحو ثلاثة أسابيع على حادثة المرقص)

جميلة : الآن تعرف كل واحدة مهمتها

طالبة : نعم

جميلة : سنعيد ما قلنا بإيجاز وسرعة .

طالبة ثانية : سنكون عند الشاطئ المهجور قبل المدرسة

طالبة ثالثة : فى السادسة

طالبة رابعة : بملابس وطنية

جميلة : بالضبط .. هه ؟

الأولى واسمها منى : (مترددة) أنا ليس عندى ..

أنا لست أعرف كيف ألبسها ، وليست لى عباءة !

الثانية : (تهمس للثالثة وتضحكان)

وعباءة الست المصونة أمها ؟..

منى : لِمَ تسخرين ؟ ألأن أمى من فرنسا ، تسخرين ؟!

أنا ليس ذنبى أن أمى من فرنسا

لكن أبى بطل يحارب فى الجبل

وأبوك قاض يخدم المحتل .

جميلة : (معترضة) لا يا منى ...

الثانية : أأبى أنا ؟ .. لكن أمك من يهوديات ...

جميلة : (مقاطعة) لا .. لا يجوز لنا تناول بعضنا

إنا جراحٌ كلنا !

الثالثة : حسناً سأعطيها عباءة خالتى

جميلة : وهناك عند الصخرة الأولى تجدن مجاهداً

سيقول : هل طاب الهواء ؟ فما الجواب ؟

الرابعة : سنقول : طاب ..

جميلة : من بعد هذا سوف يعطى كل واحدة شِوالاً ..

منى : حسناً وكم يزن الشوال (أى الجِوال) ؟

جميلة : سيكون أثقل ما حملت طوال عمرك فاستعدى يا منى

وهناك سرن على يمين الصخرة الأولى

مدى خمسين خطوة ستجدن فجوة

الثالثة : وعلى مداخلها رجل

منى : وأمامه بعض الجمال

الثانية : سيقول . هذا للجمل

جميلة : لا لا ! خطأ !

فلتحذرى الخطأ الصغير فقد يدمر كل شئ .

منى : سيقول ضعن حمولتى فوق الجمل .

جميلة : لتضعنها .. ولتنطلقن وراءه

منى : أترى سنركب فوق هاتيك الجمال ؟

الثانية : (ساخرة) بل قد يعد لنا هناك الرولزرويس

الرابعة : (بحسم) ومتى نعود ؟

جميلة : لا تسألى وتعودى يا أخت ألا تسألى أبداً

الثالثة : أما أنا فأنا كتوم لست أسأل

جميلة : سترون إخواناً هناك يدبرون رجوعكن

ستعدن قبل العصر ، حتماً

منى : (بفرح) أى قبل ميعاد انصراف المدرسة

كيلا يلاحظ أهلنا أنا تأخرنا دقيقة !

الثانية : فلتعذرينا إن سألنا يا جميلة .. إننا
لم نشترك من قبل فى عمل كنقل الأسلحة

جميلة : أخطأت أيضاً .. لا تبوحى بالمهمة

الثالثة : أنا لم أذع سراً .. فنحن هنا جميعاً نعرفه

جميلة : (بحسم) لا تلتفتن إلى الوراء

منى : زوج لوط عندما التفت إلى خلف غدت تمثال ملح !

الثانية : (هامسة) هذا من العهد القديم
قد علمتها أمها هذا الكلام

جميلة : (مستمرة) وإذا تصادف فى الطريق وقابلوكن ...

الثالثة : (مقاطعة) قابلونا ؟

منى : أحد من البوليس .. أو دورية ؟

جميلة : (مكملة) فلتنتحبن كأنكن مهاجرات بائسات .

وأطعن ما يلقى به حادى الجمال من الأوامر

منى : (متعجلة) الآن نذهب

جميلة : لا يا منى ! لن تذهبى معهن أنت ..

الأولى : لِمَ لا ؟! ألا تثقين بى !؟

جميلة : بل إننى فكرت فى عمل عليك أداؤه .. عمل مهم !

الأولى : ماذا لديك أهم من هذا ؟ أأقعد دونهن ؟

جميلة : لا لن تكونى دونهن

فلديك مسئولية المنشور يا أختى العزيزة

(تعطيها ربطة من المنشورات)

روحى غداً لتوزعيه على بنات المدرسة فلتقرأيه .

ولتسألينى ما بدا لك فيه

(الطالبة منى تنحى المنشورات ثائرة وتتقدم إلى جميلة بانفعال)

منى : (محتدة) إن كان حقاً إن هذا الدور يشبه دورهن

إن كان حقاً إن توزيع الكلام

عمل مهم مثل توزيع السلاح

فلِمَ القتال إذن ؟! أجل فيم الكفاح !

لما لا نحارب بالكلام ؟

الطالبة الرابعة : لكنهم فرضوا القتال ودمروا فرص الكلام !

منى : إنى لأعرف كل هذا ...

جميلة : مهما يكن

فتعلمى يا أخت أن جميع أعباء المجاهد واحدة

لا دور يفضل غيره .

جميلة : والآن .. فى هذا الكفاية ..

فلتقرأى المنشور

(الطالبة ترفض القراءة وهى ما زالت غاضبة فتأخذ جميلة نسخة من المنشور)

جميلة : إذن اسمعيه ..

(تقرأ) لكيلا تسيل الدماء الزكية

منا على الكتب المدرسية

لكيلا يطأطئ آباؤنا رءوسهم تحت عار بشع

لكيلا تغيض فضائلنا فى هجير المظالم أو فى الفزع

ومن أجل مستقبل زاهر تضئ به البسمات العذاب

لكيلا تسود علينا الذئاب

لكى نملأ القلب بالأمن ، والبيت بالخبز ، والنفس بالكبرياء

(منى يغلبها التأثر شيئاً فشيئاً فتأخذ المنشور من جميلة وتكمل قراءته)

منى : ومن أجل تحرير أرض الجزائر من البربرية

وحكم فرنسا وإرهابها

لنبذل لجبهة تحريرنا

لندفع لها

قـَوِّها بانضمامك

ستقوى بها .

وسِر شامخ الرأس تحت اللواء

الثانية : هذا الكلام يثير حتى الهامدين !

الثالثة : ويشد أعصاب الشجاعة

منى : سأوزعه !

جميلة : (تعطيها ربطة)

لتوزعى هذا .. ولكن حاذرى أن يضبطوك !

منى : إنى لأعرف أنه دور دقيق

(تضع الربطة فى حقيبتها المدرسية)

الطالبة الرابعة : أنت اقتنعتِ الآن أن عليكِ مسئولية كبرى

منى : أجل

جميلة : فإذا لأمرٍ ما ضـُبــِطتِ

الطالبة الأولى : (بثبات)

إنى عثرت بهذه الأشياء فى عرض الطريق

ولست أعرف ما بها .

جميلة : (للأخريات) والآن لا تنسين أن غداً عظيم يُرتـَجى

لنكن دقيقات جميعاً دائماً

وكما اتفقنا كل شئ سوف يحدث فى انضباط كامل

واذكرن فى خطواتكن ، فى همسكن ، فى صحوكن ونومكن :

بأن جزءاً من مصير الحرب فى أعناقكن

الرابعة : حسناً سننهض بالرسالة مثلما يرجو الوطن

(يتهيأن للخروج وتسلم عليهن جميلة واحدة فواحدة)

جميلة : (أثناء توديعهن) حظ سعيد .. فى أمان الله ..

عدن مظفرات .. فلتعدن !

(عندما تخرج آخر واحدة وجميلة تودعهن ، يدخل جاسر من باب آخر)

جاسر : (بالباب) عمل مجيد .. أنت قائدة مجيدة .

جميلة : أترى سمعتَ حديثهن ..

جاسر : (يتقدم) إنى لأشعر أنهن غداً يصرن مجاهدات باسلات

ما كنت أعرف أن عندك كل هاتيك المواهب فى اجتذاب الأخريات

جميلة : والآن ها أنا ذى وأنت !

أنا لم أرك منذ الصباح فأين كنت ؟

جاسر : لا تسألى ـ وتعودى يا أخت ألا تسألى أبداً

جميلة : (بخجل) صدقت

جاسر : إنى لأشعر بارتياح

جميلة : حقاً فقد وصل السلاح

لم تبق إلا شحنة الغد وحدها وهى الأخيرة

جاسر : إن الأناشيد الجديدة تعتلى أسوارنا المتهدمات

والنصر يقبل فى النهاية دائماً

والفجر يزحف بالشعاع الحلو وردى الخطى

جميلة : كبشير أيام سعيدة

جاسر : إنى لأشعر أن فجر النصر يغمرنا بسحره !

جميلة : أعداك عمار بشعره ؟!

جاسر : يا أخت ما دمنا نعيش ، وتستطيع قلوبنا أن تزدهر

بالحب .. بالفكر السديد وبالمنى فسننتصر

جميلة : يا ليتنا كنا نعيش بلا دموع

جاسر : يا ليتنا !

جميلة : وبلا ندم

جاسر : أتراك نادمة على شئ ؟

جميلة : هل كان حتماً أن يشوب نجاحنا فى حان سيمون فجيعة ؟

جاسر : إن المعارك لا تقدر بالخسائر وحدها ، بل بالنتيجة .

جميلة : أعرفت ما معنى وقوع صغيرة حسناء

فى أيدى رجال فاتكين

ومدججين بشهوة التدمير والتشويه والهدم الفظيعة ؟!

جاسر : أنعود نندب حظها ؟! إنى لأعرف أنه خطأ صغير

جميلة : خطأ صغير ؟! خطأ صغير أن عزاماً أصاب بيير

لكن لم يمته

وما يزال بيير يملك أن يقول وأن يشير !!

خطأ صغير أننى أجبرت هنداً أن تسير معى إلى تلك السفينة

بينما سيمون تطلب أن تعود بها مؤمنة سليمة !!

خطأ صغير !! كله خطأ صغير !!

ويلى من الخطأ الصغير !

جاسر : (يصرخ فيها)

هل كان فى مقدور مثلك أن يساعدها لتنجو ؟

(ثم يتماسك) إنى رأيتك فى الظلام تفاجئين على الطريق

بجموعهم ، وإلى جوارك هند شاحبة تئن

لكنها صرخت ، فأدركت الذئاب مكانها !

هكذا هو الخطأ الخطير !!

ولقد شهدتك تصنعين المستحيل

ومطاردوك يحاصرونك بالرصاص المنهمر

لكنها وقعت .. أكان عليك أن تقعى كذلك ؟

أو أن تموتى بعد ما وقعت ليهدأ خاطرك !!

جميلة : لكننى مع كل هذا ما أزال أعيش

جاسر : فى مثل معركة الجزائر وهى معركة المصير

يتعلم الإنسان وهو يعيش فى الخطر الرهيب المستمر

متى يضحى أو يموت

ومتى يكون عليه واجب أن يعيش !

جميلة : عربيةٌ حسناء مرهفةٌ بحس مشتعل

فى زينة امرأة الطريق ، وبعد مصرع عشر ضباط معاً

جاسر : هى بعد لم تـُعدَم .. فكفى عن نواحك يا جميلة !

جميلة : (مستمرة) تقع الشقية فى مخالبهم ، وتمكث بينهم

فى المعتقل   عشرين يوماً أو يزيد !

جاسر : مع كل هذا فالأسابيع الأخيرة

قد سجلت بعض انتصارات كبيرة

جميلة : (مستمرة) أسفى على عمار أصبح ذاهلاً من بعد هند

جاسر : بل أنت واهمة .. فعمار له قلب جسور متقد ..

عمار يعرف ما الجهاد وما الفداء .

جميلة : (شاردة) كانا سيقترنان فى هذا الشتاء بلا مراء

كانت تسير ، فتخطف النظرات للواجهات

حالمة بأثواب الزفاف !

كانت تقول له سنبنى عشنا فى مخبأ فوق الجبال

حتى إذا جاء الزمان الحلو وانحسر الشقاء

سيكون هذا العش قصراً رائعاً مثل الخيال !

جاسر : (ينفجر فجأة) لا تكملى

جميلة : لِمَ عدتَ تصرخ ؟ هل أخافك ؟

جاسر : أسكتى

جميلة : أنا لا أخاف

جاسر : لو أننا نبكى سعادتنا التى راحت ،

لراح العمر فى هذا البكاء

جميلة : أنا قلت لك

لا تتخذ هذا القناع الزائف الوحشى بعد

فأنا التى شهدت دموعك ..

ولقد صحبتك ها هنا من نحو شهر

ولقد شهدتك متعباً ومعذباً وشهدت جوعك

ولقد رأيتك فوق مائدة الطعام وأنت تأكل فى وداعه مثل طفل

ولقد رأيتك حين تغفو بعد مجهود كبير

ورأيت وجهك وقناعه هذا يزايله ، فتغشاه الضراعة

ولقد سمعتك فى سكون الليل تبكى فى سكون

بعد انتصار يملأ النفس الكسيرة بالإباء والأمل

وسمعت صوتك أنت ، صوتك أنت نفسك ، كالأنين

تبكى على عمى وأحمد والضحايا الآخرين

وتنوح فى يأس ـ أجل يأس على ذكرى شهيدتنا أمينة

وعلى أخى المسكين سرحان البطل ..

ولقد رأيتك واجماً لما عرفت بسجن هند !

لا تتخذ هذا القناع الزائف الوحشى بعد

أنا قلت لك !

جاسر : كانت أمينة ذات يوم فى مكانك يا جميلة

لكنها هى لم تكن أبداً تساءلنى

جميلة : (فجأة) أكنت تحبها

جاسر : أجننت ؟ ما هذا الكلام !

جميلة : أتظن هذا لا يناسب من يكافح للسلام ؟!

لِمَ لا أقول كما أشاء

جاسر : سنقول بعد كما نشاء !

جميلة : إنى لأعرف أن دمعى لا يشل يد القضاء

وإنما ما حيلتى !

جاسر : وأنا كذلك كم بكيت كما تقول زميلتى

لكننى لا أنحنى أبداً .. فتلك هى المهانة !

هذا هو العار الذى يصم القلوب إلى الأبد !

جميلة : فإذا سقطت أنا .. ألا تأتى إلى قبرى لتبكينى ؟

جاسر : كفى ..

جميلة : أتراك ترفض وقتها أن تنحنى

جاسر : وإذا سقطتُ أنا شهيداً ذات يوم دون قبر ..

جميلة : (بانزعاج شديد) لا .. لا تقل هذا !

فإنك معقد الأمل المظفر

لا . لا تقل هذا ! لماذا قلت هذا ؟ أنت رمز ليس يُقهَر

فلو أنهم سجنوك أو قتلوك لم تعد الحياة سوى حطاماً

(تحاول أن تتماسك فجأة)

جاسر : فيما عساكِ تفكرين ؟

جميلة : أنا يا إلهى كيف بحت بكل هذا ؟ كيف قلته ؟!!

جاسر : (كأنما يقول لنفسه) ها نحن نحيا تحت سقف واحد

ووراء جدران من الحرمان والعمل الدؤوب المشترك

ومن العفاف   هذا لعمرى ضد قانون الطبيعة

لكنه شرع الجهاد .

جميلة : ماذا تقول ؟ أتعد لى دوراً جديداً كى أكابده معك !

جاسر : إنى لأعرف أنه دور نكابده وفى الأعماق مختنقٌ يصيح

لكأنه الأمل الذبيح !

جميلة : أنا لست أفهم ما تقول

جاسر : وأنا كذلك لست أعرف ما أقول   أنا لست أعرف

جميلة : أنا لست أفهم ما بصدرك

جاسر : لا تفهميه الآن .. لا .. لا تفهميه فإننا جيل يسير بلا توقف
كى يقهر الفوضى والاستبداد والحرب الكريهة والتعسف

جميلة : (كأنها تغير الموضوع) وإذن فبعد غد سيبتدئ الهجوم

جاسر : (مستمراً) وعندها
سيغرد العصفور فوق خمائل الكرم الحنون
وسيورق الزيتون فى ألق الندى ، وستفهمين
سأقول عندئذ ! أجل سأقولها وستعرفين وتعرفين !
وسيضحك الإنسان فى فرح الحياة .. وتضحكين ، وتضحكين

جميلة : عجباً ! .. أأنت تقول هذا كله ؟

جاسر : ماذا يرانى الآخرون ؟   حجراً من الصوان ؟

جميلة : لا .. بل أنت أصلب دائماً

أتحب أن يتخيلوك كقطعة من صخر أطلس !

جاسر : بل أنتِ ظالمةٌ ، فلست أحب هذا .. إنما

(لا يكمل)

جميلة : أغضبت منى ؟! أنت قائدنا المظفر .. أنت رمزٌ ..

أنت جاسر

جاسر : مهما يكن فمن الحجارة ما يلين

ومن الحجارة ما يرق لكى يسيل الماء منه ..

جميلة : أأنت شاعر ؟؟

جاسر : (مستمراً) أم أن حتماً يا جميلة أن أعيش بلا مشاعر ؟

(تقترب منه فى انفعال وإشفاق)

جميلة : ماذا تقول ؟؟

جاسر : لا تدهشى .. أنا لم أزل للآن جاسر

أنا دائماً أنا .. جاسر الرجل الذى لم تخطئيه

(حركة على الباب الخارجى)

جميلة : الباب يُفتح ..

جاسر : من لديه اليوم مفتاح ؟ أعمار ؟

جميلة : وعزام كذلك ..

جاسر : هل ذاك عزام ..

(وقع خطوات سريعة يقترب جداً)

جميلة : بل إنها خطوات عمار السريعة هو ينهب الدرجات نهباً

(يدخل عمار)

عمار : المعذرة قد جئت قبل الموعد المضروب

جميلة : جئت مبكراً بدقائق ..

جاسر : ماذا هناك ؟

عمار : لا شئ .. قد وصل السلاح إلى الجبل
وصحابنا يستعجلونك فى البقية

جاسر : غداً تصل وإليك خطة نقلها

جاسر : (يعطيه ورقة فيتناولها عمار بإجلال كبير)
وضعت جميلة كل شئ فى انضباط كامل
خذها فقد أقررتها ..

عمار : (وهو يتناول الورقة)
إنى أقدسها ، أجل وأكاد أسجد دونها لولا الحياء ..
فهنا الخلاص .. أجل هنا .. فى ذلك الورق الخلاص !

جاسر : اذهب بها هذا المساء إلى الجبل

عمار : أنا ليس عندى بعد مال كى أعود إلى الجبل

(لجميلة) ألديكِ مال أنتِ ؟ قد فرغ اعتماد مواصلاتى

جميلة : استهلك المنشور ما عندى جميعاً

عمار : (بعصبية) لابد من مال

جاسر : سيعود عزام ببعض تبرعات .

فاهدأ وقل لى يا أخى ...

أفحصت ما فى الشحنة الكبرى من المتفجرات

عمار : هى رائعة ..

جميلة : (مترددة) أ ... ألديك أنباء تساق عن الزميلة هند ؟

عمار : (بحزن عميق مفاجئ) هند

عشرون يوماً .. ينزعون ثيابها فى كل يوم ثم يغتصبونها

جميلة : ويلاه ! الوحوش !

عمار : بالرغم من هذا فعمار يعيش !

(عزام يدخل مندفعاً فى اضطراب شديد)

عزام : فلتسرعوا ...

جاسر : ماذا جرى ؟

عزام : هم قادمون الآن

جاسر : كيف ؟

عمار : أتراهم اكتشفوا المكان ؟

عزام : سيفتشون لتسرعوا .. لن يتركوا بيتاً هنا ..

الوقت يمضى .. ما لدينا الآن إلا نصف ساعة ..

جاسر : (يتحرك بسرعة متجهاً لجميلة) فلتجمعى أوراقنا

(تجرى جميلة إلى المدخل)

لا تجمعى إلا الضرورى المهم واحرقى الباقى بسرعة .

عمار : حسناً .. وبعد

جاسر : عمار .. ساعدها هناك

(عمار ينظر إليه بإشفاق)

عزام : عمار .. أسرع قبل أن يتقدموا

(يدخل عمار وراء جميلة)

جاسر : (لعزام) والآن هل دبرت كيف سنختفى من قبل أن يتقدموا

عزام : امشوا لباب المسجد
إن المسافة كلها عشرين متراً أو أقل .

جاسر : قل لا تــُطِل ..

عزام : وعلى يمين الباب فى الدرب المجاور
ستقابلون هناك شيخ المسجد
سيقول مرحى ثم يأخذكم جميعاً نحو داره
وهناك سرداب أمين سيروا به ميلا .

جاسر : وبعد

عزام : وهناك .. عند نهاية السرداب ، اقرع مرتين

سيجيب صوت ما نسائى منغم : هل جئت ، أهلا

لتجبه أنت : الزورق المرجو جاء

فإذا أجاب : الخير يرجح

فاتركه يفتح ولتدخلوا ، فهناك بيتى !

جاسر : بيت من ؟

عزام : هذا هو الحل الوحيد ..

سيكون مخبأك الأمين هناك فى الحى الفرنجى البعيد ..

جاسر : ولمن يكون الصوت ؟

عزام : صوت عشيقتى سيمون

جاسر : (منزعجاً) كيف ؟

عزام : أوَ بعد ما فعلت لنا نرتاب فيها ؟

جاسر : لكنها مهما تكن ...

عزام : لا .. لا تهنها أنت ! لو كنتَ تعرف ما اعترضت !

جاسر : أنا لست أرفض ذلك الأسلوب ، لكن لا أحبه !

عزام : هل نحن نفعل ما نحب ؟ أتحب قتل الآخرين !؟

جاسر : هذا صحيح !

عزام : سيمون جاءتنى بأسرار القيادة كلها ،
ولسوف تعرفها هناك منها
عرفت شروعهم فى هجمة كبرى علينا ها هنا فى حينا
وعرفت أنهم أعدوا شحنة أخرى
إلى الجيش الذى يلتف حول رجالنا

(تدخل جميلة ومعها بعض أوراق وحقيبة مدرسية)

جميلة : (لجاسر) هذا هو الورق المهم اللازم ..

(جاسر يأخذ منها الورق ويفحصه)

جاسر : فلتحرقى الباقى بسرعة

جميلة : (لعزام) ألديك عود من ثقاب ؟

(مع جميلة علبة كبريت خالية تشير بها)

عزام : أنا لا أدخن يا جميلة بعد ..

ثمن الدخان الآن ضم إلى اشتراكى

(جاسر يفحص الأوراق بسرعة وهو يضعها فى حقيبة بينما عمار يدخل فى عصبية صارخاً)

عمار : عوداً من الكبريت ...

جاسر : عمار لا تصرخ على عود الثقاب

عزام : (بجد) لا وقت بعد لكى أروح فأشترى هذا الثقاب ..

لو أنهم وقعوا على ما فى هذه الأوراق ...

جاسر : كلا

عمار : (صارخاً) عوداً من الكبريت ينقذنا جميعاً

كيف هذا يا إلهى

المصير معلق بخزعبلات ..

عوداً من الكبريت ينقذ جبهة التحرير ، ينقذ كل معركة الجزائر

عوداً من الكبريت بالذهب المكدس يا صحاب !

وبنصف عمرى أشتريه

عوداً من الكبريت بالدنيا .. بمملكتى جميعاً !

فرساً بمملكتى ! حصاناً واحداً بالمملكة !!

أنا ذلك الملك المعذب عند شكسبير حين أحيط به

عزام : عمار .. لا تصرخ ... وفكر !

(جاسر يغلق الحقيبة الآن بعد أن فرغ من فحص الأوراق وترتيبها فيها)

جاسر : اقدح زناد الفكر فلتصنع لنا من كيميائك أى نار !

عزام : عمار .. فلتشعل فتيلاً من صخور الفرن

جميلة : فلتخلق شرارة !

عمار : ألديك شئ قابل للاشتعال

جميلة : هناك بترول الوقود

عمار : جيئى به .. هو قد يفيد ..

جاسر : أسرع إذن

عمار : هيا بنا

عزام : الوقت يزحف

جميلة : أسرع ورائى

(تخرج مسرعة وعمار وراءها)

**عزام : والآن كيف نرتب السير السريع إلى النفق
فى هذه العشرين متراً**

جاسر : سأقودهم أنا

**عزام : أنت ؟ لا .. هذا نزق سيقودنا أحد سواك فقد يقع
فلتبق أنت إلى النهاية ! لِمَ لا أقودكم أنا ؟**

جاسر : بل أنت تبقى ها هنا

أنظر من الشباك واكتشف الطريق لنا

عزام : أتظن هذا ممكناً ..

جاسر : جرب

(عزام ينظر من النافذة)

عزام : إن الطريق يبين حتى بيت شيخ المسجد !

جاسر : فإذا وجدت هناك إنساناً غريباً فى الطريق

أو إن شعرت بأى ريح من خطر

فاصرخ : تقدم يا بيير

وإذا هم دهموا المكان هنا وأنت به فقل

قد جئت أبحث عن فدائى خطير !

عزام : حسناً .. ولكن لن تقود الركب أنت

ستظل أنت إلى النهاية ، هل فهمت ؟

(جاسر يفتح حقيبة جميلة فجأة وينحى بعض الأوراق على جانب فى انهماك ملحوظ)

جاسر : لا ينبغى وضع الوثائق فى مكان واحد ..

(يضع بعض الأوراق فى جيبه ويسلم عزام بعضها)

خذ أنت هذا

(تدخل جميلة بطمأنينة)

جميلة : عمار أوقد شعلة ، والآن يحترق الورق

جاسر : هذا عظيم ..

عزام : الوقت يزحف ..

(عمار يعود مبتسماً فى طمأنينة)

عمار : الآن نمضى .. قد فرغنا

جاسر : وعلى الطريق إلى هناك ، يسير منا واحد ليقودنا

فإذا انحنى للدرب واكتشف الطريق

ولم يجد أحداً غريباً فى الطريق فليرم منديلاً

عزام : هذا احتياط طيب .

(لعمار وجميلة) وأنا سأرقب من هنا

فإذا بدا خطر سأصرخ يا بيير

جاسر : اصرخ : تقدم يا بيير ! فلننصرف .. سأقود

جميلة : (بجزع) بل أى إنسان عداك

عزام : لتظل أنت إلى النهاية

عمار : ليقد سواك .. لأقد أنا

جميلة : لِمَ لا أكون أنا إذن

جاسر : لا .. بل أنا ..

عمار : فإذا وقعتَ وهم جميعاً يعرفونك

جميلة : لا .. كيف نحتمل الحياة إذا وقعت ؟

جاسر : لكن ...

عمار : وكيف يكون هذا العيش دونك ؟

جميلة : أنقول حين يضيع جاسر : إنه خطأ صغير

هات الحقيبة ولأسِر أنا فى الطليعة

(تأخذ حقيبتها المدرسية التى تحتوى على الأوراق)

عزام : ماذا يرى عمار ؟

عمار : لأكن أنا ..

جميلة : لا بل أنا .. فأنا بزيى المدرسى

وبالحقيبة لن أثير شكوكهم إن باغتونا ..

عمار : ليكن

عزام : وإذن فنحن الأغلبية سيرى على اسم الله

(تتحرك جميلة إلى باب الخروج)

جاسر : (معترضاً بانفعال) لا بل قفى . لا . لن تكونى أنتِ أيضاً

جميلة : ما ذلك الفزع الذى يغشاك ؟ ويحك ! أنت جاسر !

أتراك تخشى أن أموت ..

(تنحيه برفق وتتقدم)

جاسر : (فى استسلام) سيرى على اسم الله ..

ولتحرسك عين رعايته ..

جميلة : (على الباب) إن مت يا عزام قل للناس عنى فى غد

جاسر : سيرى كما سار النبيون الكبار وبشرى ..

جميلة : (تكمل) إن مت قل إنى سقطت على الطريق

لأزيح أشواك الطريق

ولكى يسير الركب من بعدى إلى نصر محقق

سيروا على جسدى إلى النصر المحقق

(تخرج ، ووراءها جاسر وعمار)

عمار : (يتوقف) عزام ..

(يعود فيعانقه)

عزام : ماذا أصابك أنت أيضاً ؟

عمار : عزام قد لا نلتقى ..

عزام : لِمَ كلكم متشائمون   سنلتقى وسنلتقى

ولأنتَ تعرف يا أخى عمر الشقى

(يضحكان ويخرج عمار بينما العصر يؤذن . يتجه عزام إلى النافذة)

هذا أذان العصر فأل بالنجاح   الله خير حافظاً .. الله أكبر

(يدقق النظر من النافذة)

مرت جميلة فى سلام   دخلت إلى الدرب المجاور

هو ذا الزميل هناك .. شيخ المسجد   مرحى جميلة

ألقت بمنديل الأمان

(يضطرب فجأة)

ما ذاك ؟ قد ظهر الجنود وراءها من أين جاءوا ويحهم !

هى لا تراهم   لا لا ... تقدم يا بيير

(بيأس) الوقت فات ! سيمر جاسر بعدها وسيعرفونه !

سيواجهون الآن جاسر ..

يا ويحهم يتقدمون وراء جاسر !

ما بالها ألقت حقيبتها لشيخ المسجد

الشيخ يدخل بالحقيبة داره

هو ذا الزميل الشيخ عاد ..

لكنهم يتقدمون تجاه جاسر

الضابط التعس اللئيم سيعرفه

الوقت فات .. هو ذاك عمار أحيط به كذلك

لكنها تجرى لماذا ؟ إن فى هذا خطورة !

أترى تشاغلهم بهذا الجرى ، ويحهم لقد شـُغِلوا بها .

هم يسرعون وراءها ...

(طلقة رصاص مفاجئة)

أواه قد سقطت جميلة !

سقطت على صخر الطريق لتزيح أشواك الطريق

ولكى يسير الركب فوق كيانها الدامى إلى النصر المحقق

((ستار))

المنظر الثانى

(حجرة مأمور سجن بربا روسة لها نافذة على اليمين يبدو منها الجبل وبعض المآذن وباب فى الصدر . عن يسار الحجرة زنزانة يفصلها عنها جدار يقسم المسرح ، الزنزانة فى الظلام تماماً .. عندما يفتح الستار نجد جميلة فى حجرة المأمور مستلقية فى ثياب مهلهلة على أريكة فى شبه غيبوبة وإلى جوارها يقف بيير وهو الآن يحمل رتبة الكولونيل .. من بعيد يقف طبيب فى البالطو الأبيض ... بالحجرة أدوات التعذيب .. باب الصدر له بهو ضيق على حائطه بعض آلات التعذيب)

بيير : (لجميلة) سوف أعفيك من التعذيب إن قلت لنا أين يكون

(الطبيب يتحسسها)

الطبيب : لم تزل مغمى عليها

بيير : إنها تهمس يا دكتور

الطبيب : لكن لا تبين

بيير : أعطها جرعة أخرى فقد تنطق

الطبيب : لا ...

بيير : (غاضباً) كيف ؟

الطبيب : أخشى أنها لا تحتمل

فالذراع الأيمن المخلوع قد كاد يشل

وهنا فى الصدر جرح متقيح

كان أولى بكم أن تنقلوها لمصح

لا إلى قلعة برباروسة يا سيدى

بيير : كل هذا ليس يعنينى ولا يعنيك أنت

إنما شغلك أن تعطيها الجرعة كى تصحو حتى لا نعطل .

أم ترى ينتظر التحقيق حتى تتفضل ..

الطبيب : (مقاطعاً) ربما ماتت إذا أعطيتها جرعة أخرى

بيير : ينبغى ألا تموت إنها لم تعترف بعد

(يقدم له سيجارة) تفضل

الطبيب : ألف شكر ..

(يأخذ سيجارة ويدخنان)

الطبيب : (وهو ينفث الدخان) اطمئن ..

هى لن تفلت من دون اعتراف

بيير : هذه الرنة فى صوتك لا تعجبنى ، يا طبيب السجن ..

الطبيب : لكن تقاريرى تعجب فأنا يا سيدى حسبما يُطلب أكتب

بيير : (صارخاً) أنت تستدرجنى لأسب السلطة العليا

الطبيب : أنا ؟

بيير : أنت إن كنت عميل المكتب الثانى هنا

الطبيب : من عميل المكتب الثانى ؟ .. أنا ؟

(جميلة تتحرك)

بيير : أنت لا تعرفنى ؟ أنا رقيت إلى رتبة كولونيل من شهر لماذا

الطبيب : لست أعرف

بيير : والذى يملأ هذا الصدر ؟ ما هذا

الطبيب : قلادات الشرف

بيير : (مستمراً) قل لهم فى المكتب الثانى احشدوا مجهودكم

لا بيننا نحن كى تكتشفوا الساخط منا !

بل مزيداً منه للأعداء

الطبيب : لا توجه لى حديثاً مثل هذا .. أنا أحتج عليك

لإهاناتك تلك ..

أى شأن لى أنا بالمكتب الثانى هنا ؟

إنما شغلى هو الطب .. أتفهم ؟

بيير : مع هذا أنت فى كل تقاريرك تكذب

أنت قلت الآن هذا أنت نفسك

الطبيب : إننى أكذب حقاً .. عندما يُطلب منى !

بيير : أترى ؟

الطبيب : لم يعد شئ هنا محترماً

أنت لا تحمل فى قلبك هذا ثقة ما بأحد ..

بأخ أو بولد

ربما أصبحت يوماً فاكتشفت

أنه فى المكتب الثانى ومدسوس عليك

لم يعد شئ حقيقى سوى الشك ! .

بيير : (بعصبية) كفى

الطبيب : (مستمراً) أنت إن تخلُ إلى زوجتك الحسناء

لا تعرف فيما قد تفكر

ربما كانت تعد القبر لك !

أو تناغى من وراء الحلم حباً سبقك أو عشيقاً يخلفك

كل شئ لم يعد يصلح إلا للشكوك

إننا أهون من كل هوان إننا نركع إكباراً لما لا نحترم

والذى يذرى دموع العين نلقاه بثغر مبتسم

حذراً من أن تظن السلطة العليا بنا ..

بيير : (مقاطعاً) ماذا تقول ؟

الطبيب : كبرياء القلب يستخذى على كل لسان

والنفاق اليوم سلطان الزمان

بيير : بدلاً من كل هذا الهذيان يا حكيم السجن ، أتقن مهنتك

لِمَ لا تصنع شيئاً يوقظ المجرمة

(جميلة تئن وتحاول أن تنهض)

الطبيب : هى ذى تصحو

جميلة : أين نحن الآن ؟ (تنظر إلى الطبيب) من أنت ؟

الطبيب : الطبيب

بيير : وأنا لست غريباً عنك

جميلة : من أنت ؟

بيير : بيير

جميلة : أى كابوس عجيب !

بيير : أنا لم أقتـَل كما كنتم تريدون ، وها نحن التقينا

الطبيب : (هامساً له بتحذير) سيدى ! .

بيير : (يتوقف) كم تقابلنا

جميلة : (متنهدة) أجل نحن تقابلنا

بيير : وإذن فلنتحدث مثلما كنا صديقين قديمين

جميلة : ومتى كنا صديقين ؟

بيير : قد نقلناك إلى هذا المكان لتكونى فى أمان
فدعينا نتعاون

جميلة : ما الذى تطلب منى سيدى

بيير : ستكونين هنا أكثر أمناً وسكينة

جميلة : ما الذى يعنيك من أمر الرهينة ؟

بيير : لا تقولى مثل هذا .. إنما أنت سجينة

وغداً ، تنفتح الأبواب حيث العالم الرحب الذى ينتظرك

أنت فى هذا الشباب الغض أولى بالمسرات الكبيرة

لا بهذا السجن والتعذيب والهول الذى يعتصرك

وبوسعى الآن أن أفتح أبواب النعيم لك إن طاوعتنى

جميلة : ماذا تريد ؟

بيير : إنما أنت فتاة طيبة   لست من أعدائنا ، لكنهم قد خدعوك

فلتبوحى لى بأسمائهم .. من هم ؟! أجيبى !

أين جاسر

إنهم لن يعرفوا إنك قد بحت بسره

وغداً تحيين فى باريس ، أو حيث تشائين أميرة

إنما الأمر يسير ! إنه سهل .. فقولى ، أين جاسر ؟

جميلة : أوَ كان الأمر سهلاً عندكم عندما كانت فرنسا جاثية

تحت أقدام جنود الهتلرية   ثم هبت لتقاوم

بيير : يا صغيرة لا تقولى كلمات باهرات دون جدوى !

ولتكونى عملية   إنهم لن يعرفوا أنك قد بحت بسره .

فكرى فى عمرك المهدر فى هذا الضياع

واذكرى ما أعرض الآن عليك

جميلة : (بمرارة) أن أباع

بيير : إنما أعرض حلاً لخلاصك ليس أكثر

إننى أعرضه مستهدفاً فيه حياتك

جميلة : إن من حقى وحق الناس أن نحيا جميعاً شرفاء

بيير : ولهذا أنا أدعوك إلى أن تسمعينى .

جميلة : ألكى أحيا كما يحيا سواى حرة آمنة أكسب قوتى

ينبغى أن تغرف الوحل يداى ويصبح العار حولى

بيير : أو تموتى

جميلة : أنت هل طاوعت آلامك من قبل فخنت واعترفت ؟

بيير : (هائجاً) أسكتى أيتها البلهاء ، لن تحتملى ما أعِد الآن لك

قد أضعت الفرصة الكبرى عليك (يمسك ذراعها)

الطبيب : لا .. لا تمس ذراعها المتقيح المكسور

بيير : أسكت أنت

الطبيب : كيف أقول ؟ يا سيدى الكولونيل

بيير : ما بك ؟

الطبيب : إنها ستموت منك

بيير : أنا هنا المسئول

(يضغط أكثر وهى تكتم آلامها فى استبسال حتى لا تصرخ)

أتراك تعترفين أم لا ؟ أين جاسر ؟

جميلة : لا تهددنى وأنت ذليل

بيير : (يضغط أكثر على ذراعها) سترين .. قولى أين جاسر

جميلة : (فى شبه إغماء) إنه ..

الطبيب : ستقول ... اسمع

بيير : (يترك يدها) إنها ستقول

جميلة : هو فى الجزائر ..

بيير : أين ؟

جميلة : يحفر قبركم ، ويصول فوق حطامكم ويجول

(فرقعة ودوى من بعيد)

بيير : (مضطرباً يلتفت للطبيب) أسمعت ؟!

الطبيب : ما هذا إذن ؟

جميلة : هو صوت جاسر

إنى لأبصر من وميض دويه فجر الجزائر

بيير : سترين هذا الكبرياء الزائف المصنوع

كيف سينحنى .. وستصرخين

جميلة : (وهى تستعيد كلام جاسر فى شبه حلم)

وسيورق الزيتون فى ألق الندى .. وستفهمين

وسيضحك الإنسان فى فرح الحياة وتضحكين .. وتضحكين

ببير : هل ذقت مس الكهرباء ؟

(ينادى) سيرجنت

(يدخل جلاد من باب الصدر ، ووراءه اثنان من الجنود)

الجلاد : يا سيدى الكولونيل

ببير : هيا انزعوا أثوابها   وضعوا سلوك الكهرباء   هيا

أعدوا الكهرباء

(حركة من الخارج من ناحية باب الصدر)

جميلة : هذا عجيب   أنا لست أفهم أى طاقات مروعة

تركب فى النفوس

أنا لست أفهم كيف يحتمل الجسد

قد كنت أصرخ حين ألمس نار موقد

أو حين يلسعنى إناء من نحاس قد غلا فيه الطعام

قد كنت أسقط مجهدة

من بعد ساعات قلائل فى مذاكرة الدروس

والآن ها أنا ذا أرى هول الحريق ولا أبالى

أنا لا أبالى .. لن أبالى .. لن أبالى ..

(يجرها الجلادون بقسوة إلى الخارج ويسود الصمت)

(جميلة ملقاة فى الخارج لا نرى إلا رأسها من فتحة باب الصدر وصوت موتور "محرك كهربى" يدور)

جميلة : (من الخارج) أتظن هذا الصمت سوف يخيفنى ..

ابدأ مهمتك الحقيرة

(صوت موتور يدور)

بيير : (على باب الصدر) ما طعم تلك الكهرباء

وكيف حال الكبرياء

جميلة : سيظل فوق شفاهكم طعم الدماء

الطبيب : فلتصرخى لتخففى الألم الممزق

بيير : (يصرخ) اصرخى

الطبيب : ها أنت تصرخ .. لا الفتاة

بيير : لِمَ لم تقولى أين جاسر ؟ أين جاسر ؟ يا عشيقة جاسر

الطبيب : إن الفتاة تكاد تصعق   ستموت منك بلا اعتراف !

بيير : كفى .. كفى .. (يتوقف الموتور)

جميلة : ستموت مختنقاً بوحل العار يوماً يا بيير

بيير : فلتحملوا تلك اللعينة   ألقوا بها فى النار

(من باب الصدر يدخل مأمور السجن)

المأمور : يا سيدى .. ألديك مقترح بشأن المجرمة ؟

بيير : خذها بنفسك سيدى المأمور .. عذبها بنفسك ألف مرة
فلتخترع أى الوسائل كى تبوح لنا بسر عشيقها السفاح جاسر

المأمور : لو أنها جنت لأمكن أن تقول

بيير : وكيف يمكن أن تجن   سنجن نحن ولن تجن

المأمور : لِمَ لا نغير فى اسمها ونصب فى أوهامها فزعاً عظيماً ..

يا سيدى الدكتور أنت محنك فى مثل هاتيك الأمور !

الطبيب : أنا ؟

المأمور : أجل بالطبع أنت

بيير : والآن اذهب أنت واصنع ما بدا لك فى الفتاة

إن المهم هو الحصول على اعتراف صادق بمكان جاسر

خذ الاعتراف .. أو الحياة !

المأمور : إنا لنعرف كيف نجعلها تلين هنا

بيير : تصرف

المأمور : غداً صباحاً تعترف

الطبيب : لو أنها صرخت لهان الأمر ، واعترفت سريعاً

بيير : لا .. إنهم حتى إذا صرخوا فهم لا ينطقون

إنى لأعرفهم جميعاً

الطبيب : وتطالَبون بأن تثيروا الخوف فى أعماقهم من بعد هذا ؟!

بيير : لكنهم أشباح

الطبيب : ماذا ؟

بيير : (يصرخ) ليسوا سوى أشباح

نحن نحارب الأشباح ..

الطبيب : اهدأ

بيير : (مستمراً) فهم هنالك فى الجبال

يتقاذفون من الصخور ويلسعونك كالهوام

لا يعرف الإنسان كيف وأين كانوا مختفين

وهم هنا .. حتى هنا وسط المدينة فى الزحام

يتواثبون عليك كالقدر الأصم ، فإذا قبضت عليهم

عبثوا بعقلك

وعليك فى هذا الجحيم المضطرم تعويضهم عن فيتنام !

الطبيب : لتسترح .. خذ إنه قرص مهدئ

(يعطيه قرصاً من دواء ولكن بيير يقذفه وينفجر)

بيير : قل أنت كيف تحارب الأشباح قل ..

وهم هنالك فى فرنسا يحسبون أنا هنا متمتعون بمسلمات

المسلمات الرائعات !

إنا هنا لنكاد تخنقنا الهزيمة والهوان

وكأن صحراء الجزائر هاوية فـُتِحت لنا : لرجالنا

وعتادنا ونفوسنا

وهم هنالك فى فرنسا يصرخون : إن الخزانة خاوية !

ويوجهون لنا الأوامر : لابد من تدمير ثوار الجزائر !

حسناً .. تعالوا ها هنا ولتتركوا الغرف المكيفة الهواء

ونبيذ بورجونيا وأعطاف النساء

فلتتركوا الأوراق والخرط الملونة الحواشى والدبابيس

المذهبة الرءوس

فلتتركوا السهرات والصفقات والإليزيه

وإصدار الأوامر ..

وتفضلوا أنتم بلحمكم .. تعالوا ها هنا

للوحل والصحراء والرعب المجنح حولنا

للصخرة الجرداء ، والسأم العقيم ، وللعدم !

خوضوا المعارك ولتغص أقدامكم فى الطين ثم تكلموا !

لا .. لن يكون الأمر سهلاً مثلما تتصورون !

ارموا هنا خمسين قنبلة من الكوبالت تسحق كل شئ

هذا هو الحل الوحيد .. أتفهمون ؟ .. أتفهمون ؟!

المأمور : سيدى الكولونيل لا تحفل بشأن المجرمة ...

إننى أعرف شغلى

الطبيب : انصرف سيدى المأمور أنت

(يعطى لبيير قرصاً آخر) سيدى خذ .. واسترح

المأمور : (لأحد أتباعه وهو يخرج من باب الصدر)

ارمها فى الحجرة السوداء

(يخرج المأمور .. ويغلق باب الحجرة والطبيب يطفئ النور . فى النصف الآخر من المسرح يفتح السجان باب الزنزانة من الصدر . الزنزانة قاتمة ، جرداء وفى وسطها عمود .. وفيها دلو وقصعة من الزنك ولا شئ بعد .. أمام الباب وهو متسع نوعاً ما ، يقع بهو مضئ .. يتقدم جان ووراءه جندى تابع له يجر جميلة ، الجندى يسلم جان بعض الأوراق ويدفع جميلة .)

الجندى : استلم يا سيدى الصول استلم

إنـها عشرون ألف وثمان

جان : هاتها لن يغفر الله لنا فهنا ينقلب الإنسان نمرة !

الجندى : مع هذا أنت لا تصنع شيئاً مثلنا

طالما ما زلت تملك رفض ما يُطلب منك !

جان : ها أنذا بعد ما كنت نجوت

أرجع الآن إلى هذا السعير

فرحاً بالترقية .. تحت إغراء النقود

(ثم لجميلة) أدخلى .. يا للضحية !

(جميلة تتقدم ببطء شديد .. فتدخل من الباب بينما الجندى وجان ما زالا فى البهو أمام الباب)

الجندى : من أين تملك كل هذا الحب للإنسان

حتى للذين يقاومون وجودنا

جان : لِمَ لا ؟ لأن عيوننا يسكبن نفس الدمع حين ننوح

ولحزننا نفس الرنين !

ولأننا نحيا بنفس الحلم فى أرض تظللها العدالة والسلام

ولأننا ..

(يأتى المأمور فيسكت)

المأمور : أيها الصول .. ارمها فى الحجرة السوداء ، واتبعنى

جان : هى ذى فى الحجرة السوداء .

المأمور : لسنا ها هنا فى فندق   إنه سجن ! تعال ..

ما الذى يبقيك أنت ؟

جميلة : (لنفسها) يا إلهى أنا فى قلعة برباروسة ! ..

جان : إننى أعرف هذا .. هو سجن أى سجن

(ثم لجميلة) اهجعى فى الحجرة السوداء يا بنتى ..

(جان ينصرف والسجان يغلق باب الزنزانة ، وينصرف . جميلة تتأمل الزنزانة فإذا بامرأة صغيرة منفوشة الشعر رثة ممزقة الثياب تتداخل فى نفسها بأقصى الزنزانة كأنها حيوان مذعور)

جميلة : إنها سوداء حقاً هذه الحجرة ..

هند : (بصوت عميق) سوداء بلون العيش

جميلة : (تندُ منها آهة ذعر خفية ثم تذهب لتتأملها عن كثب . وحين تعرفها تصرخ)

هند ؟ يا إلهى .. كم تغيرت !

هند : لم أعد حسناء بعد !

(تنتفض فجأة وتدور فى المكان بسرعة تقلد صوت المدفع الرشاش وقد شرعت ذراعها كأنه مدفع)

هند : تك .. تك .. تك .. تك .. هات .. خذ .. هات

أيها أقرب إلى الله تعالى انفجار القنبلة ،

أم دوى المدفع الرشاش ، أم ..

صرخة العذراء وهى تغتصب ! إنها لمشكلة !

جميلة : هند ماذا صنعوا بك آه .. يا أختى

ماذا صنعوا بك ؟

هند : خذ .. هات .. خذ هات ..

إنهم قادمون الآن فى تلك الوجوه الكالحات

العيون النهمات

قبعات لونها كالدم .. آه .. ألف ناب ألف مخلب

تنهش الساعة فى لحمى .. آه

(تجرى وتختفى فى ركن الحجرة)

جميلة : لا تخافى .. قد بعدنا الآن عنهم

هند : ولكنى أراهم يقبلون

دائماً هم يقبلون ! احفرى لى مخبأ فى ذلك الحائط

حتى لا يرونى

(تنبش الحائط بأظافرها فى ذعر)

جميلة : أسكتى يا هند

هند : (تصرخ) لست هنداً بعد .. إنى عاهرة .. عاهرة !

جميلة : كل هذا يا إلهى !! .. كيف ؟

هند : أنتم يا من تخرجون الآن من هذا الزمان الأسود

لا تقولوا إننا فى ذات يوم قد ضعفنا .. ما ضعفنا .. ما ضعفنا

(تتهاوى)

جميلة : اهدئى الآن .. كفى .. هل أسوى لك شعرك

هند : آه شعرى !

(تقلد أصوات رجال وحركاتهم)

شعرك الأسود موج من حرير أنت يا مجرمتى الحسناء !

هاللو مسلمة

(ثم تضحك) ها ها ها (يختلط ضحكها بالبكاء)

بقع الدماء على قميصى الداخلى هى رائعة

أتروق لك يا ليفتنانت !

قد جاء دور الكولونيل يا ليفتنانت ! (تصرخ)

إلى الوراء .. إلى الوراء

لِمَ تخبئون المدفع الرشاش ؟ هاتوه لأحصدهم جميعاً

عَمِىَ القضاء

وليس للدنيا عيون .. ! حتى السماء

قد أغلقوا أبوابها دون الحيارى الأبرياء

من للمساكين الضِياع من للجياع ؟

(تقلد صوت قنبلة) طم فلتسمعوا صوت الجزائر

الجيش فى الجبل البعيد   ينقض كالصقر العنيد

من فوق جيفة عاهرة   تدعى فرنسا !!

القائد العملاق جاسر ! قاد الجموع الثائرة

لمعارك هيهات تـُنسَى !

عمار ترقص فوق كاهله العقارب وهو يعمل لا يبالى

لا لم يمت بو حريد بعد ، فلم يزل فوق الجبال

وأبى هناك مع الرجال

وأخى الشهيد .. يعود يمتشق السلاح ولا يبالى

الله أكبر يا رجال .. إلى السلاح

فلتصنعوا بدم الضحايا المستباح فلق الصباح

لا تسألونى أين جاسر . إن جاسر فى الطريق

بقع الدم القانى على ثوبى ستعطى الليل لوناً دامياً

النور يزحف فى جزائرنا الجديدة وهى تزحف بالنبالة والطهارة

وأنا هنا ألقيت فى طين الدعارة   أنا عاهرة .. أنا عاهرة

جميلة : (تصرخ بذعر)   سأجن .. سأجن !

(يدخل حارس)

الحارس : لِمَ تصرخان ؟

هل عادت المجنونة الحسناء تصرخ من جديد ؟

هند : أنا ؟

الحارس : إذا صرختِ سأجلدك !

(يخرج ويغلق الباب فتجرى هند وراءه وتسند ظهرها إلى الباب)

هند : هم قادمون

جميلة : لا .. لا تخافى يا صديقتى العزيزة واستريحى

أوَ ليس شيئاً رائعاً أن يسكن الإنسان قرب صديقه الإنسان

هند : فى هذا المكان ؟!

جميلة : لن يخنقوا العقل المجنح فى دروب مغلقات فالفجر آت

هند : (تقعد باستكانة وحزن عميق) بالله يا ريح الظلام

عودى إلى البلد الذى أقبلت منه وبلغى عنا السلام

(تضحك) قد كان عمار يقول الشعر فى ذاك الزمان

قد قال فى حبى قصائد ليس يعرفها أحد ؟

أوَ تذكرين ؟

فإذا مررت على السهول الخضر يا ريح الظلام

فسلى الأصائل والضحى .. وسلى الجنون

ماذا دهى الزيتون

فإذا سمعت حديثهن عن المآسى والدماء

عودى إلى البلد الذى أقبلت منه وبلغى عنا السلام !

(تضحك ولكن ضحكاتها يخالجها البكاء)

أنا قد نسيت ..

لو كان عمار هنا لاغتاظ منى !

ولقال لى أتراك قد أنسيتِ شعرى !

قد كان عزام يقول .. لا لا سلام

بل بلغيهم ألف لعنة

جميلة : آه .. يا صديقتى العزيزة !

هند : (شاردة) قد كان جاسر يا جميلة دائماً يهواك

جميلة : هند !

هند : هل تعرفين ؟ .. أنا لم يقبلنى أحد !

حتى خطيبى البائس المسكين عمار المضيع

هو لم يقبلنى كذلك

لكننى أصبحتُ عاهرةً هنا ... أوَ تعرفين ؟

قبضوا علىَّ وكنتُ فى ثوب غريب فاضحٍ

هل تذكرين ؟

لكننا نحن انتصرنا يا جميلة إنا قتلناهم جميعاً

جميلة : (بمرارة) إلا بيير

هند : أوَ تعرفين ! إنى اعترفت عليك أنت .. على الجميع

حتى على عمار أيضاً ! أنا سيئة .. أنا سيئة

جميلة : (تقاطعها) هند .. استريحى لِمَ لا تنامين ؟ استريحى

هند : (بخطورة) لا .. لا تنامى يا جميلة طول عمرك

هم يقبلون ونحن فى نوم عميق فنفيق

كى نلقى محاسننا تباع على الطريق

قد نمت يوماً ساعة فإذا بهم يتجمعون

.. وثبوا علىَّ كأنهم سرب الذئاب

وسطوا على عقلى ، وفروا

إنهم هربوا به هربوا به

ورموه فى بحر سحيق

فى لجة سوداء يرقص فوقها مسخ مخيف

جميلة : أترى هل يعرف العالم ما يحدث فى هذا المكان ؟!

نحن فى عصر الحقوق البشرية

والذى يحدث لم تعرفه أعماء العصور الهمجية .

(يدخل الطبيب والمأمور وجان والسجان وجندى ، والجندى الذى سلم جان أوراق جميلة منذ لحظة)

السجان : ليلى ... تعالى ها هنا .. ليلى .. (يشد جميلة)

جميلة : لا .. لا .. اذهبوا .. لن تصنعوا بى مثلها

لن تسرقوا عقلى .. اذهبوا أنا لست ليلى

السجان : بل أنت ليلى

جميلة : أنا جميلة بو حريد

السجان : (يضربها بالسوط) بل أنت ليلى ... أنت ليلى ...

جميلة : لن تسلبونى أى شئ .. اسمى جميلة بو حريد

جان : (لنفسه بعيداً وهو معذب مما يجرى أمامه) وارحمتاه لها

جميلة بوحريد !

(السجان يضربها أيضاً)

هند : (تجرى ناحية جميلة وهى تنظر إلى الطبيب)

لكننى أنا هادئة فلتبتعد عنى إذن !

وقد اعترفت على الجميع

لا تعطنى حقناً من المورفين بعد ولا من الأفيون

قد صار كل دمى من المورفين

الطبيب : هند !

هند : فلتنقذينى يا جميلة !

السجان : (يجذب هنداً) إن اسمها ليلى

المأمور : أجل اسمها ليلى .. وإلا

هند : (فى ذعر شديد) أجل اسمها ليلى .. أجل .. ليلى

المأمور : (يشد جميلة ويلقى بها أمام هند)

هو ذا مصيرك ! ستكون ليلى مثل هند

جميلة : لا ... لا ...

المأمور : حسناً .. فقولى أين جاسر   ليلى أجيبى

جميلة : (ثائرة) أنا لست ليلى لست ليلى بل جميلة بو حريد

إنى لأشهد هذه الدنيا عليكم يا وحوش   الله أكبر

إن المظالم لن تعيش   الله أكبر

المأمور : (للطبيب) هذا الهياج علامة محمودة

الطبيب : ستجن فى يومين أو قل فى ثلاثة

المأمور : (لجميلة) إنى لأعرض فرصة أخرى عليك

جميلة : ماذا تريد ؟!

المأمور : (مهدداً بخطورة) إن لم تقولى أين جاسر ...

جميلة : (تقاطعه بهم) أنا قلت يوماً أنه ما زال يحفر قبوركم

المأمور : (ثائراً) هذه الحمقاء ليلى .. اصلبوها

فإذا مالت من الإعياء فلتشرعوا السنكى عليها .. اصلبوها !

(يتقدمون ويشدونها إلى العمود الذى يتوسط الحجرة ويحيطونها بالسنكى)

المأمور : أعطها حقنة المورفين .

جان : (يصرخ فجأة) لا .. لا .. إنها سوف تجن !

(الطبيب يعطيها الحقنة)

جميلة : سيدى إن رحت يوماً للكنيسة

وتطلعت لتمثال المسيح وهو فى تاج من الشوك .. ففكر

فى الذى عاش لنا منه ، وفيما عاش من أعدائه !

المأمور : (ضاحكاً) أنتِ عطشى مثلما كان المسيح

وهو مصلوب ... معذب

لا تبلوا فمها بالماء إن صاحت كما بُلَّ فمه

واشربى من ها هنا حيث تبولان معاً

جان : (هامساً) يا إلهى .. كيف تشرب

المأمور : أنت يا جان احترس .. ولتراقب جيداً ما يصنعون

ولتنفذ كل تعليماتنا

(يخرج ووراءه الطبيب)

جان : (وهو يرسم الصليب) يا يسوع

لا تؤاخذنى بما أخطأ غيرى !

جميلة : لا تحسبوا الإنسان فى دنياه يحيا كالرهينة فى فزع

الزعزع النكباء هبت تدفع السحب الكئيبة

والشمس تحيا من وراء السحب لحظتها العصيبة

الشر فى وكر الخديعة ظل يفرخ كيف يشاء

لكنما علم الحقيقة فى النهاية يرتفع

والنور يسطع بعد حين وغداً ستنتصر الحياة

وسيورق الزيتون فى ألق الندى وستفهمين

وسيضحك الإنسان فى فرح الحياة وتضحكين !

أنا يا صديقى قد فهمت وقد ضحكت

يا جاسر اركع فوق قبرى ! لا ! فإنك رمزنا !

هذا هو العار المهين !

الله أكبر ! ليُدَوِّ صوت النصر فى كل البقاع

يا سيدى زحف النهار

الله أكبر ! ارفعوا أصواتكم أيضاً من الجبل البعيد

يا جاسر المرجو أسرع الله أكبر

لتردد الوديان هذا الصوت .. صوت الانتصار

(تميل رأسها على صدرها وهى مشدودة الوثاق)

السجان : (يتقدم منها) لا تصرخى .

جميلة : يا أيها الفرسان من كل الجبال تقدموا وتقدموا

يا أيها الشجعان فى جوف الليالى السود لا تستسلموا

وتقدموا ، وتقدموا ..

بشذى جزائرنا الجديدة ، بالنضارة ، بالربيع

لتبددوا سحب الدموع ولتمسحوا كل الدموع

السجان : قلت أسكتى

جميلة : الله أكبر فلترفعوا أصواتكم أيضاً ، ليرتفع النداء

(تتهالك) الله أكبر

(تتهالك أيضاً) الله أكبر .. أين ضاع الصوت ،

هل خنق النداء

فى أى كهف مظلم ذاب النداء !

الجندى تابع جان : لا تقربوها إنها ماتت

جان : لكأنما هى سانت جان .

(جان يسقط راكعاً أمامها وهى مصلوبة ويصلى ويقبل طرف ثوبها فى ضراعة)

جان : فلتغفروا لى أيها الشهداء من كل العصور

فلتغفرى لى أنت يا جان دارك .. سيدتى الرحيمة

فيداى غارقتان فى دمك الطهور

يا سانت جان .. أنا شقى فارحمينى واغفرى لى

جميلة : (بضعف شديد) من ذلك الباكى على قبرى ؟ وكفى ..

لا تزعجوا قبر الشهيدة !

لا فى جزائرنا الجديدة الزهر ينبت دائماً

حتى على صخر القبور !

جان : (ينهض) قديستى العذراء .. رفقاً بى

السجان : لتعد لبيتك كى تنام

جان : (فى انفجار هائل) ابتعد ! ستلوث القدس الحرام

الجندى تابع جان : يا سيدى .. أنا لم أعذبها .. أنا ..

السجان : أسكت ..

الجندى تابع جان : (لائذاً بجان فى بكاء ضارع) لتصلِّ من أجلى

جان : أأنا ؟ أتقبل لى صلاة ؟!

أنا ها هنا أشقى من البؤس الزرى

ملك لهذا السجن كله   ملك لآلامى ، لعارى ، للهوان ، وللمذلة

لا بل سأرحل ، لن أعيش هنا .. سأرحل !

أنا سوف أرحل عن بلاد يقطع السكين فيها لحم آنسة بريئة !

(يخرج جان مندفعاً ووراءه الجندى تابعه)

الجندى الآخر : سيعود ينشرها ها هنا أفكاره الحمقى الجريئة

السجان : اذهب إلى المأمور بلغه

(يخرج الجندى)

السجان : لا بل سأسبقه إليه .. فقد أجاز بترقية

(السجان يخرج مسرعاً ووراءه الجندى ولا يبقى غير جميلة وهند . هند تأكل الآن فى قصعة من الزنك تحملها وهى تأكل وتتقدم بها إلى فم جميلة ثم تتوقف)

هند : قد كنت أحلم بالزهور فهل حلمت ؟

قد كنت تهوين الزهور ، أتذكرين ؟!

ولكم حلمنا نحن أن غداً سيأتى الوقت

لكن هذا الوقت معطونٌ طعين فى الفؤاد

الوقت وا أسفا طعين دمه يسيل على البلاد

بقع الدماء تكاد تغمر مدمعى

(يقع منها الطعام فتنحنى إلى الأرض وتجمع الطعام المتناثر)

جميلة : (بضعف) فلتسكتى

هند : لِمَ نحن نسكت يا جميلة ؟ كُلى .. كُلى ...

(تقدم إليها شيئاً من الطعام الذى جمعته من على الأرض)

جميلة : (بصوت باك) شكراً

هند : لا .. كم طعمنا فى الليالى السود من خبز الدموع

لِمَ تغمسين طعامك القدسى بالدمع السخين ؟

(حجرة المأمور تضئ وعلى المائدة فى صدرها يجلس المأمور وإلى جواره بيير وأمامهما بعيداً عنهما يجلس جان . والطبيب يقف وراءهما)

بيير : يا جان .. إنى لست أجهل من تكون

إنى لأعرفك وأسرتك .

وأظن أنك لن تقامر يا عزيزى أن تجوع طفلتك

جان : حسناً ، وبعد

بيير : وأظن أيضاً أن زوجتك الوديعة لا تحب لزوجها ..

جان : (يقاطعه صارخاً) ما كل هذا كيف تعرف زوجتى !

وبأى حق أنت ....

المأمور : (مقاطعاً) ماذا دهاك ؟!

بيير : (للمأمور والطبيب) أنا صديق العائلة

(ثم للمأمور همساً) ما زلت أركض خلف زوجته العصية

دون جدوى !

جان : حسناً فأنت صديق العائلة ؟

أنت الذى رقيتنى وأعدتنى لأكون سجاناً هنا .

بيير : أكتبت تلك الاستقالة ؟

(يعرض عليه ورقة)

جان : أنا لا يساءلنى هنا إلا رئيسى

أنا لست أعمل فى المظليين

بيير : اسمع

جان : أنا ليس من عملى هنا أن أسمعك

بيير : يا جان لا تنس القواعد

جان : أنا باسم هاتيك القواعد أرفضك !

المأمور : يا جان .. اسمع لى أنا .

جان : ماذا يريد السيد المأمور ؟

المأمور : يا جان أنت أعز علىَّ من كل الرجال هنا

جان : حسناً وبعد .

المأمور : من أجل هذا اسمع نصيحة مخلص لك
واستعد تلك الوريقة

جان : أتراك تعنى الاستقالة   لكن لماذا ينصح الإنسان
فى هذا المكان ، وجميع آلات التعذيب تحيط به ؟

ببير : إنا سننسى ما كتبتَ بها

المأمور : طبعاً سننساه .. وخذ يومين راحة .

جان : أتظننى قدمتها من نحو عشر دقائق يا سيدى لأعود فيها
لن أسترد الاستقالة سيدى   هى دمعة أذريتها

كيف السبيل إذن إلى استردادها

المأمور : لكن ما فيها فظيع

ولأنت فيما سُقته فيها تسب السلطة العليا وتمتهن الجميع

جان : أنهين ظالمنا إذا ما نحن أذرينا الدموع ؟!

بيير : فى كل سطر فى استقالتك امتهان للوطن

جان : بل ها هنا وطنى فرنسا يُمتـَهَن

وطنى المقدس ها هنا فى القلب يُطعَن !

المأمور : أيها الصول استمع لى جيداً

إن ما يحدث فى قلعة برباروسة سرٌ علينا كلنا .. حتى علىّ

والذى سطرته فى هذه الرقعة إفشاء لسر عسكرىّ

جان : أمن الواجب أن نرتضى الإجرام والشر وألا نتبرم

أمن الواجب ألا يصرخ القلب المحطم

أمن الواجب ألا نتكلم !؟

أعلى من يعمل الآن هنا أن يوافق

الطبيب : ها هنا لا يجيب الناس إلا بنعم

جان : يا منافق !

الطبيب : النفاق اليوم دستور العلاقات .. ولكنك أحمق

المأمور : (وهو ينظر إلى الاستقالة) إننى أعجب أن يكتب
جندى فرنسى كلاماً مثل هذا فى استقالة !
أترانا نحن أهدرنا العدالة ليسود الغضب الدامى هنا ؟!
إننا لا نقتل الناس .. ولكنهم ينتحرون

الطبيب : والذى جن هنا جن من خوف الجنون

المأمور : (مستمراً) والذى أسميته التعذيب فى السجن أما
هو أسلوب من التحقيق يجدى دائماً ؟!
أنت جندى قديم أنت تعرف أنت تعرف

جان : (صارخاً) إننى أعرف أن الليل أسود
مثلما قال أراجون ..

بيير : (ساخراً) أنت أيضاً تقرأ الشعر ؟

جان : (مستمراً) إننى أعرف أن الخير مهزوم مشرد

إننى أعرف أن الزيف قد عاد يعربد

إننى أعرف أننا نستعيد من جديد

ها هنا عصر العذاب

عندما سقنا إلى الإعدام جن دارك على وقع النشيد

إننى أعرف أنى أنا جان بطل الحرب القديم

الفرنسى العريق أنا من يحمل نيشان البطولة

أهدر اليوم تقاليد فرنسا .. التقاليد النبيلة !

بيير : انتبه أيها الصول ولا تصرخ أمام الرؤساء

جان : (يصرخ أكثر) بل دعونى ..

إننى أصرخ فى هل بلاد تحترق ليفيق النائمون

الذين انطلقوا يمشون فى نومهم نحو حدود الهاوية

إننى أصرخ كى ينتبهوا قبل انقضاض الغاشية

إننى أصرخ كيلا يسقطوا بعد

المأمور : كفى

جان : إننى أصرخ فى كل مكان

إننا نهدر تاريخ البطولات المجيدة

إننا نسخر من ذكرى ضحايانا العظام

إننا نولغ فى عِرض فرنسا ها هنا

إنما الشعب الفرنسى خـُدِع

المأمور : حسبك !

بيير : أترى أحببت تلك المسلمة أيها الشيخ

(بيير وجان يتهامسان)

جان : عندما أنظر فى وجه الفتاة الشاحب الحلو المعذب

ذلك الوجه الذى ما زال بالرغم من المأساة يشرق

أحسب ... ...

بيير : (يقاطعه) الشيخ انجذب أنت يا جان انتبه

جان : (مستمراً) أن السماء فقدت ألوانها والشهداء

المأمور : (يزعق) أنت يا جان .. أتسمع ؟ قد قبلنا الاستقالة

جان : إنـها قديسة حقاً ..

بيير : نحن نعفو عنك ... فاذهب

المأمور : جان .. لولا أننا قد قدرنا خدمتك لاعتقلناك على الفور

بيير : انصرف أنت

(جان لا يتحرك)

المأمور : انصرف أنت وسلم عهدتك انصرف يا جان

بيير : (ثائراً) انصرف من هنا

جان : (وهو يتحرك إلى باب الحجرة)
حسناً .. فلننصرف كلنا من ها هنا
ما الذى نصنع فى هذى البلاد ؟
إنها ليست لنا

المأمور : (ينـهره) اذهب

(جان يمشى مندفعاً وعندما يبلغ الباب يطلق بيير الرصاص على ظهره فيسقط)

الطبيب : ما عسانا سنقول ؟

المأمور : (لبيير) ما عسى الدكتور يكتب ؟

بيير : انتحر

الطبيب : إنما الطلقة فى الظهر

بيير : وما المانع

المأمور : أكتب : خدعته الزوجة ...

بيير : (يقاطعه) اسمع .. لا

المأمور : (يكمل) فجن ، فانتحر

الطبيب : هكذا من ظهره !

بيير : لا لا .... انتظر

(يحك بيير رأسه بيده كأنه يفكر فى طريقة)

(هم الآن يفكرون وظهرهم لجان الذى ما زال يتلوى فى فتحة الباب)

جان : (فى حشرجة وهو يطلق رصاصة)

لن يعيش الشر بعدى يا بيير

(بيير يستدير لمواجهة جان فيطلق جان عليه رصاصة أخرى .. المأمور والطبيب يسرعان إلى بيير الذى خر صريعاً . الطبيب يفحصه)

المأمور : (لبيير فى انزعاج) سيدى الكولونيل .

الطبيب : (يقف) إنها فى القلب بالضبط .

المأمور : أمات ؟

الطبيب : مات ... مات

ما الذى أكتب عنه ؟ فأنا مثلما يُطلب منى سوف أكتب

((ستار))

الفصل الخامس

(قاعة المحكمة . باب القاعة الرئيسى فى أقصى يسار المسرح . أمامه بهو .. وعلى باب القاعة يقف الحراس تحت رئاسة الكولونيل عزام .. تناثر بعض الناس على المقاعد بينما يدخل الآخرون أثناء رفع الستار . الناس من رجال ونساء هم مستوطنون تدل ملابسهم على ثراء ملحوظ ، وبينهم بعض الضباط من المظليين ومن اللفيف الأجنبى بثيابهم الرسمية .. عزام يفحص بطاقات المدنيين الذين يدخلون .. قفص الاتهام فى الصدر وراءه باب .. المنصة على اليمين وراءها باب آخر)

امرأة : (لعزام) أنت المسئول عن الجلسة ؟

مستوطن : أتراك تجيد حراستنا ؟

عزام : أرجو هذا .. أو فليحرس كلٌ رأسه .

(يضحكون ويدخل الرجل والمرأة إلى القاعة)

مستوطن ثان : أوَ يمكن أن يتسرب إرهابى للمحكمة ؟

عزام : ومن يدرى !

امرأة ثانية : أنا أعرف سرك يا عزام فلا تكتمه

عزام : وما سرى ؟

المرأة الثانية : (لرجل جوارها) هو يحسب أنا لا نعلم !

امرأة ثالثة : (لعزام) لن يدخل مسلم

عزام : أوه .. كيف عرفت التعليمات السرية

لم تسمع سيدتى منى هذا بالطبع

المرأة الثالثة : (وهى تدخل بدلال) أولا .. مون شير

إن رئيس المحكمة صديقى !

مستوطن : (للمرأة الثالثة مشيراً لعزام) هو أخلص من فى خدمتنا

مستوطن آخر : ولهذا يعجب عمدتنا

ضابط : (من مقعده مشيراً إلى إحدى الداخلات) هاللو ..

المرأة : (وهى تقعد) هل جاءت من برباروسة ؟

الضابط : (الذى كان يشير) الآن ستفتتح الجلسة .

المرأة : (لرجل وراءها) لابد لنا من أن نشهد حفل السواريه

لأن الفيلم غداً بالذات سيتغير .

رجل : أوكيه .. أوكيه

مستوطن : (للمرأة) تـَأمْرَكَ زوجك منذ تعرف مع سائحة أمريكية !

زميله : أسكت حتى لا تسمعك صديقته الباريسية

الضابط : (يضم فتاة ويقبلها) لا أحد سواك أفضله

المرأة : أترانى أدفأ من ب. ب. أو أجمل من مارلين مونرو

ضابط من خلفه : هنا محكمة لا شارع لتوفر هذا للمخدع !

الضابط : (الذى كان يقبل المرأة) أأنت عدو للحرية ؟!

مستوطن فى صف آخر : اليوم ستسقط رأس الأفعى

زميله : اليوم ؟ أنا لا أتصور !   قل بعد ثلاثة أيام أو أربعة

زميل ثالث : أو قل أكثر .

رجل : (من على الباب من ناحية المدخل يقول لزميله وهما يدخلان)
لِمَ لم تـُقتـَل فى السجن كسواها ؟

زميله : بل لا .. لا ... لا

المستوطن : ألدينا وقت لنحاكم ؟

زميله : قد عرف العالم قصتها .. أترانا نتحدى العالم ؟

ثالث ينحشر بينهما : هذا شئ يذهلنى
كيف تسرب هذا السر من السجن ؟

مستوطن من مكان آخر : (لجاره) أوَ لم تدخل محكمة
أم تجهل طول الإجراءات ؟

امرأة : (تتدخل فى الحديث وتقول بأهمية) سنفرغ منها فى ساعة !

(يذوب كلاهما فى همس)

المستوطن الأول : أعجزنا عن سحق الإجرام   لنقيم محاكم ؟

لتغير تلك السلطات .

(دخل كل الناس الآن واتخذوا مقاعدهم)

(يفتح الباب الذى فى قفص الاتهام وتدخل جميلة ووراءها حرس .. يعلو الهرج والصخب)

أصوات : الموت لقاتلة الأطفال .. الموت لها .. الموت ... لتحرق

فلتعدم .. لتقتل عاشقة المجرم ..

(يفتح الباب الذى يؤدى إلى منصة القضاء . يدخل القضاة وممثل النيابة ومحام وكاتب الجلسة . يعلو الصخب وجميلة تنظر فى كل هذا وتبتسم)

الرئيس : يا سادة   إن لم تلتزموا الصمت   سأخلى القاعة ..

(تخف الضجة تدريجياً)

الرئيس : كولونيل عزام .. أغلق أبواب المحكمة ..

عزام : سيجئ محام من باريس ... أأمنعه ؟

(جميلة تتعرف على عزام وتنظر إليه طويلاً وهى تكاد تختلج)

عضو اليسار : (همساً للرئيس) أتركها .. أتركها .. هذا أحكم !

الرئيس : إن الجلسة علنية فدع الأبواب كما كانت

فليدخل منها من يدخل

(الصخب يستمر والنداءات ترتفع)

أصوات : فلتعدم .. الموت .. الموت .

الرئيس : باسم الجمهورية باسم الشعب

نفتتح الجلسة يا سادة !

(لكاتب الجلسة) الآن لتقرأ قائمة الـ ..

جميلة : (مقاطعة) لى كلمة قبل البدء أيسمح لى ؟

عضو اليسار : قولى ما شئت فهذا حقك

الرئيس : واختصرى

جميلة : محاكمتى فى هذا الوقت من الليل

فى ساعة حظر تجولنا ...

الرئيس : (مقاطعاً) أعلى المتهمة أن تختار لنا الساعات

وتقول لنا أى الأوقات تناسبها لنحاكمها ؟!

(ضحك وصخب)

عضو اليسار : دعى هذا لمحاميك

الرئيس : (للكاتب) اقرأ قائمة التهم

السكرتير : (يقرأ) انضمت لعصابة جاسر وهى عصابة سفاحين

مهمتهم قتل الأفراد

واشتركت فى نسف كثير من ممتلكات الدولة

حوادث قتل بالجملة وبيان التهم كما يأتى :

جميلة : (مقاطعة) ولماذا لا تلقون القبض على القتلة

من دبر مذبحة القصبة

من قتل مئات الوطنيين بلا جرم فى المعتقلات ؟

من عذبنى فى سجنى تعذيباً همجياً يزرى بكرامتكم

(صخب)

أصوات : لتحرق فوراً فى الكاسبا فلتشنق فوراً .. فلتحرق

الرئيس : (ثائراً عليها) الصمت .. الصمت

عضو اليسار : (ناصحاً) قولى ما عندك فى حكمة

ولا تندفعى فى كلمة

الرئيس : كم سنك

جميلة : تسعة عشر بالتقريب

عضو اليمين : (للرئيس) لم تبلغ سن الرشد الكافى بعد

جميلة : (تقاطعه) لكنى فى السن الكافى للمعركة وللتعذيب !

صخب المستوطنين : أتراها تسخر ؟ لن نصبر !

لتمت .. فلتعدم .. فلتعدم

(أثناء الصخب يظهر جاسر من باب القاعة فى ملابس ضابط من اللفيف الأجنبى ، وعزام يمسك به ويحدثه فى المدخل بينما القضاة يتهامسون)

عزام : كيف تغامر بأمانك ؟ لِمَ جئت ؟

جاسر : أنا ذا قد جئت .. فلا تسأل

عزام : فلتجلس فى هذا المقعد

(جاسر يجلس فى آخر القاعة)

الرئيس : (لجميلة)

أصحيح أنك عضو فى تنظيم يرأسه إرهابى يدعى جاسر ؟

جميلة : (مقاطعة) لن أتحدث دون محام

المحامى : (يتودد) أنا يا آنسة محاميك .. أنا

جميلة : (مقاطعة) من وكل عنى هذا الرجل

عضو اليسار : المحكمة انتدبته لتوفر لك كل حقوقك

جميلة : ولكنى أنتظر سواه من باريس

الرئيس : لقد أرسل يطلب تأجيل الدعوى أسبوعين ..
فلم نقبل ولهذا قرر ألا يحضر .

جميلة : حضور محام عنى جزء لا ينفصل عن الدعوى
فإذا حوكمت بغير دفاع فمحاكمتى تبطل أصلاً

صخب : فليقطع رأس المجرمة .. فليقطع فوراً .. فلتعدم

عضو اليمين : أتراها قد درست قانوناً ، فهى تجيد المصطلحات !

جميلة : يا سادة

الرئيس : (ثائراً) أنا لم آذن لك بالكلمة

جميلة : أأنا أذنت لهذا الجمع بأن يعوى فى طلب الدم ؟

المحامى : أنا مثلك عربى مسلم ومن حركتنا الوطنية

جميلة : بل أنت عميل متعفن !

ممثل النيابة : أرأيتم هى لا ترعى حرمة

المحامى : فلنطردها كيلا تسخر من باقى القيم المحترمة

جميلة : (لممثل النيابة) أنا عُذِبتُ أمامك أنت ..

عضو اليسار : دعى هذا لمحاميك

جميلة : قضاة شهيدتكم جان دارك
كانوا قد عرفوا أنهم سيدينون القديسة
مع ذلك ، لم يجسر أحد منهم أن يرفض ما طلبت
لكنكم تأبون علىَّ حضور محامٍ أرضاه
أنتم تأبون علىَّ نقاش وقائع تعذيبى
وكلكم يعرف كم كان مذلاً وحقيراً وبشعاً
ولهذا فأنا أرفضكم ..

ضابط مظلى : (محتداً) فليُغلق فمها بالقوة

جميلة : لن تغلِق آذان العالم .

أنا أحتج وأرفضكم وأسجل أن محاكمتى

ليست بعد بقانونية .

فالجلسة ليست علنية ..

عضو اليسار : الجلسة ليست سرية .. والأبواب مفتحة

المحامى : شكراً .. شكراً

جميلة : لم يدخل غير الضباط ..

ضباط كلهم اشتركوا فى تعذيبى يا سادة

ووجوه أخرى كاسرة قد جاءت تنتظر الجيفة

(صخب)

الرئيس : أيريد محامى المتهمة أن يطلب شيئاً ؟

المحامى : لا لا .. عفواً

عضو اليسار : أتريد شهوداً للنفى

المحامى : لا ... لا ... شكراً

جميلة : شكراً .. عفواً .. عفواً .. شكراً ..

من أين أتيت بقلبك هذا حتى تسلك هذا المسلك

من أين أتيت بتلك القدرة فى أن ترسم

فوق شفاهك تلك البسمة .. يا متبسم !

الرئيس : الواجب أن تمتنى منه فليس سواه من يقبل

أن يترافع عن مثلك

(يندفع من الباب رجل فى نحو الستين جليل مهيب هو الأستاذ فيرجيه)

فيرجيه : بل سيدافع عنها كل شريف فى العالم

وكل محب للعدل ..

ممثل النيابة : (باستنكار) من أنت ؟

فيرجيه : أظنك تعرفنى حقاً ..

فى يوم ما من عشر سنين كنت زميلاً لى فى المكتب

أعنى تلميذى بالضبط .. محام تحت التمرين

ممثل النيابة : (مقاطعاً) أنا أحتج .. ولا أسمح

عضو اليسار : أستاذ فيرجيه نحن جميعاً نعرف قدرك

فيرجيه : (يقدم أوراقه فى تواضع) لوى فيرجيه
محام أقبل من باريس بتوكيل من أمبيلار

عضو اليسار : أمبيلار محاميها

عضو اليمين : (منزعجاً) أمبيلار محاميها

فيرجيه : منعته السلطات حين نزل

الرئيس : (يقاطعه) لا يعنينا هذا الأمر هنا محكمة لا شرطة

فيرجيه : (يكمل) وأعيد إلى باريس بنفس الطائرة

عضو اليمين : اذهب فاحتج على السلطة

(همهمة فى المحكمة منذ دخل فيرجيه ، والهمهمة تنفجر الآن)

الشغب : من هذا الأشيب ؟ مأجور ! ماذا يبغى المأجور

ليقطع رأس محاميها ليقطع رأس الاثنين .

فيرجيه : (للرئيس مشيراً للهاتفين) كم تكسب سمعتنا

لو تفلت من أيدى السادة رؤوس ليست ملكهم

الرئيس : (يرد له أوراقه) هذا توكيل لا ينفع

فتفضل أنت إلى الخارج .

شغب : لتعد لفرنسا يا مجرم فليقطع رأس المأجور

فيرجيه : أترانى أخطأت العنوان ؟ أهنا المحكمة العليا حقاً

أم مؤتمر للقتلة !؟

ممثل النيابة : اسمع يا ميتر

توكيلك ليس بمعتمد فلماذا تبقى فى القاعة

فيرجيه : فنسأل صاحبة المصلحة فقد لا ترفض توكيلى

عضو اليسار : فلنسألها

(عزام الآن يواجه جميلة وينظر إليها نظرة خاصة)

فيرجيه : (يتقدم لجميلة)

فلنسألها إن كانت تقبلنى عنها   أعطوها الفرصة للتفكير

فقد تتصور أنى أيضاً لست سوى أحد الأعداء ..

(بسخرية) ولها العذر إذا اعتبرتنى

لست سوى أحد الأعداء .. ألست فرنسياً مثلكم

جميلة : بل أنا أقبل ما تعرضه وأحييك

(صخب)

الرئيس : وبعد .. فكيف تسمى جلستنا مؤتمراً للسفاحين

فيرجيه : اسمح لى .. لِمَ نخلق جواً يمنعنا من أن نتفاهم ؟

الرئيس : أتهين المحكمة ؟ .. اسحبها .. كى أسمح لك أن تتكلم

فيرجيه : أتذكر قصة لافونتين   سيذكرك بها طفلك

عن ذئب الغابة والحمل [3]

عضو اليسار : ماذا تعنى

فيرجيه : أعنى يا سادة أن الحق لم يصبح ملكاً للأقوى

عضو اليمين : لن نسمح لك أن تترافع

فيرجيه : أنا لست بمنتدب منكم ليكون لكم حق العزل

المحامى : (المنتدب يهب غاضباً) من فضلك يا أستاذ ...

تحفظ لا تهن المنتدبين

(فيرجيه ينظر إليه مستغرباً وهو يراه يبتسم للمحكمة وللجمهور)

فيرجيه : ولماذا يبتسم الأستاذ

---

[3] كان حمل يشرب من جدول ، فجاءه ذئب ، وخاطبه غاضبا:
- كيف تجرؤ على تعكير الماء الذي أشرب منه؟
أجابه الحمل:
- كيف ذلك وأنا أشرب من مكان يبعد عنك كثيرا .
أردف الذئب قائلا:
- وهل تذكر أنك شتمتني في السنة الماضية ؟
أجاب الحمل:
- لا يمكن أن يحدث ذلك ، فأنا لم أولد إلا خلال هذه السنة.
فرد عليه الذئب:
- ربما قد يكون أحد أقاربك من شتمني.
فهجم على الحمل و افترسه.

المحامى : ما شأنك أنت .. أتحسب نفسك دون كيشوت

فيرجيه : أتعرف معنى دون كيشوت ؟

عضو اليمين : أنت توجه منذ أتيت إهانات لرئيس الجلسة

فيرجيه : ليحرك ضدى دعواه
أما أن أمنع من حقى فهذا خلط لا نرضاه
بين الواجب والحق

هتافات : ليقطع رأس محاميها .. ليقطع رأس المأجور

فيرجيه : (للجمهور) فرنسا لم تجسر يوماً أن تصفعكم بحقيقتكم
أنت وصمتنا

(الشغب يستمر)

الرئيس : وجه قولك للمحكمة ... ولتتحدث فى الموضوع

فيرجيه : أطمع فى التأجيل لأسبوع

المحامى الآخر : ولماذا هذا التأجيل ..

الرئيس : رفضنا طلب التأجيل

فيرجيه : هل لى أن أطلب أن أنفرد قليلاً بالمتهمة ؟

الرئيس : لا

فيرجيه : لا ؟ ... ولماذا

الرئيس : أجئت لتفرض رأيك ؟ لا

فيرجيه : لم يحدث فى تاريخ محاكمنا أن ..

الرئيس : (مقاطعاً) لا تتحدث عن تاريخ ..

عضو اليمين : ألديك الآن كلام آخر أم أنت أتيت من المريخ ؟

فيرجيه : وإذن فلأبدأ أفأسجل أن المتهمة محرومة
من كل ضمان قانونى

الرئيس : (مقاطعاً بعنف) يا أستاذ

جميلة : وفر جهدك يا أستاذ فإن غداً عيد الحرية

فيرجيه : (يقاطعها) يا بنتى لوذى بالصمت .

جميلة : (مستمرة) فليُمزَج نخب العيد غداً بدماء فتاة عربية

(صخب شديد يطغى على صوتها)

الرئيس : إياك أن تتكلمى

جميلة : هل تملكون سوى دمى ؟

أما لسانى فهو ملكى ، طالما هو فى فمى

رجل : (بغيظ) فلتقطعوا هذا اللسان

امرأة : (تواجهها) لتعدمى

جميلة : يا سيدى الأستاذ ..

اسمع ما أردت سماعه منى ونحن على انفراد

ما نحن إلا فى اجتماع اللصوص كما اكتشفت

دعنى أقل لك أنهم قبضوا علىَّ وكاهلى متمزق برصاصتين

وحُمِلتُ من فورى لمستشفى بعيد لست أذكر بعد أين

وهناك ظل دمى يسيل .. وكان أميل للسواد

امرأة : لِمَ لم تقولى للمحامى الشيخ عن لون القميص ؟

أكان أسود

(ضحك)

امرأة أخرى : قولى عن ((الكيلوت)) أيضاً !

عضو اليسار : (ثائراً) لا إن هذا لا يليق

(عضو اليسار يهمس للرئيس ويظل يهمس)

جميلة : (تستمر) وفجأة جاء المظليون أرتالاً كغاشية الجراد

ماذا أقول ؟ ...

(ثم منفجرة) نزعوا جميع ملابسى وتحسسوا جسدى

بأسلوب قذر

ودمى يسيل ..

فدفعتهم بيدى السليمة ، فانثنوا يتضاحكون

وهددونى قائلين ستـُهتـَكِين وتهتكين

إن لم تقولى أين جاسر

(تضطرب جداً ويغزو الخجل صوتها)

عشر من السنغال

ممن خـُصِّصوا فى الاعتداء على النساء المسلمات سيقبلون

من بعدنا نحن الفرنسيين ، ثم يواصلون

إن لم تقولى أين جاسر

أنا لست أعرف كيف أكمل ما أقول ..

امرأة : فلتخجلى من ذكر هذا يا صغيرة !

فيرجيه : (ساخراً بمرارة شديدة) راعِى حياء الأخريات الفاضلات

راعى شعور نسائنا ... الـ .. متحضرات

جميلة : (تستمر) وظللت أدفعهم وأبصق فى وجوههم الحقيرة

ودمى يسيل .

وأنا هنالك عارية وظللت أضرب عارية

ودمى يسيل

وأنا أدافعهم ، وهم يتدافعون علىَّ كالتنين فى غيظ مخيف

ودمى يسيل

وشـُدِدتُ عارية إلى آلات تعذيب رهيبة

امرأة : (ثائرة) لكننى لا أحتمل ..

إن كان هذا كله حقاً .. فكيف نعيش فى عصر كهذا ثم نسكت ..

(تخرج المرأة فى حالة انزعاج)

فيرجيه : (يستدير إلى الجمهور) لكنه زمن العذاب عصر الجنون

وسيادة المتحضرين

(ثم لجميلة) فلتستمرى يا ابنتى

(ينفجر الصخب وبعض الرجال والضباط يقوم ويلوح فى وجه المحكمة مهدداً)

مستوطنون وضباط : قد شوهتنا كلنا تلك الحقيرة !

لِمَ تسمحون لها بهذا الفحش ؟

قد جركم هذا المحامى الشيخ من أعناقكم .

فيرجيه : (لهم) يا أيها المتحضرون

أأثاركم هذا الحديث عن البشاعات الزرية

أتراكم تتبرأون من المآسى البربرية

لكنها من غرس أيديكم هنا .. الأيدى .. النقية !

الرئيس : (لفيرجيه) ما الذى تطلب .. أطلب باختصار

فيرجيه : شاهداً من سجن برباروسة ..

شاهد التعذيب فى السجن

الرئيس : وما اسمه

فيرجيه : اسمه ألفونس جان أترى أطمع فى استدعائه

وطبيب السجن أيضاً .

الرئيس : الأطباء لهم أسرارهم

عضو اليمين : إنما القانون يحمى سرهم مثلما تعرف ! ..

فيرجيه : (همساً) حقاً ؟ .. كل شئ ها هنا ضل طريقه

ها هنا يرتكب الظلم جهاراً تحت ميزان العدالة

المحامى : ما الذى يقصد من تعريضه هذا الرجل

فيرجيه : أنت قد شرفتنى إذ لم تقل : هذا الزميل

الرئيس : ما الذى تقصد مما قلته الساعة همساً ..

فيرجيه : إنه صوت فرنسى شريف

جميلة : فليجلجل

فيرجيه : فعسى لا تبصق الدنيا على ذكر فرنسا

الرئيس : أنت إن عدت إلى أسلوبك الفظ العنيف

فيرجيه : (يقاطعه ساخراً) سيدى القاضى اللطيف النظيف

لا تدع أطفالنا إن سمعوا ذات يوم بالذى يحدث منكم يخجلون .

أصوات مختلفة : أطردوه ... أطردوه ... أقتلوه ... أقتلوها وأقتلوه

(عضو اليسار يهمس للرئيس بحدة كأنما يلومه)

فيرجيه : (للجمهور الثائر والمحكمة)

إنكم لا تعرفون ! إن كل الأمهات

في بقاع الأرض ينظرن إلينا   جزعات خائفات
وعيون العالم الساخط تلقى فوقنا   نظرات كالشرر
بشزر . فاذكروا هذا ...

(صخب)

عضو اليمين : (يقاطعه) كفى   هذى إهانة
كيف أفلتَ وأقبلت إلينا

فيرجيه : كيف أفلتُ وأقبلت إليكم ؟
لا تقل هذا ، فهذا ضدكم

عضو اليمين : نحن لن نسمع لك

فيرجيه : ولذا فأنا ما زلت أرجو أن تجيئوا بطبيب السجن كى ..

عضو اليمين : (مقاطعاً) أنت لا تملى علينا ..
إنه شخـَّصَ ما فيها بآثار درن !

جميلة : المنافق !

فيرجيه : إننى أرجوكم أن تطلبوه

الرئيس : نحن قلنا لك لا

فيرجيه : أى قانون هنا يحمى طبيب السجن منا ؟

لم لا يأتى إلينا ؟

ما الذى يجعل تقرير طبيب السجن شيئاً لا يناقش ؟ ..

وهو كاذب !

عضو اليسار : لا تبالغ ..

إن فى وسعك أن تحضر تقريراً يجافى ما يقوله ..

فيرجيه : هو ذا ما أطلبه

عضو اليسار : أطلب الآن طبيباً استشارياً

عضو اليمين : كيف ؟ لا وقت لدينا ..

فيرجيه : إن عندى الآن تقريراً يجافى ما لديكم

(يقدم إليهم تقريراً فيتناوله الرئيس ويفحصه غاضباً ثم يسلمه لعضو اليسار بضيق .. ويتناوبون قراءته فى قلق وضيق)

هو من خير أطباء الحكومة إنه يكشف عن تعذيبها

عضو اليمين : (محتداً) كيف ؟!!

فيرجيه : (يقاطعه ساخراً) لا ! .. الأطباء لهم أسرارهم

الرئيس : قل لنا كيف انتهى هذا إليك ؟

فيرجيه : (ساخراً) إنه يا سيدى ... هو سر المهنة !

ممثل النيابة : أطلبوا هذا الرجل

فيرجيه : أطلبوا هذا الطبيب الحر كى تستوضحوه

عضو اليسار : سوف نستدعيه لك

عضو اليمين : لا تضيع وقتنا بعد .. أتفهم ؟ لا تضيع وقتنا

فيرجيه : ما الذى يصنعه القاضى بوقته غير تحقيق العدالة
إنما وقتكم ملك لنا

عضو اليمين : إنه ما من طبيب عالج الثوار إلا وسُجِن

فلماذا لا يجازون المحامين عن الثوار أيضاً

فيرجيه : وإذن فهو ذا تقديركم لقداسات الدفاع

إنما تنتحر الأمة حقاً

عندما تبطش السلطة حتى يصل الأمر لتهديد الدفاع

المحامى : (متملقاً) نحن بالعكس شعرنا دائماً باحترام للدفاع ..

الرئيس : (لفيرجيه) فلتناقش شاهدى الإثبات إن كنت تريد

فيرجيه : إنما القانون فيما أعرفه

يوجب البدء بتحقيق الذى جاء عن التعذيب فوراً

الرئيس : (مقاطعاً) فلتنادوا شاهدى الإثبات

فيرجيه : سيدى

عضو اليمين : حسبنا الشاهدة الأولى فلا وقت لدينا

فيرجيه : هكذا

الرئيس : نادِ هنداً

(يخرج بعض الحرس من باب القاعة الرئيسى)

فيرجيه : غير أنى ..

عضو اليسار : إنما أقوالها فى المحضر الموجود عندك

فيرجيه : ولماذا ينبغى أن نتعامل بتحدٍ متبادل

الرئيس : أنت لا تلقى هنا درساً علينا فى التعامل

(تدخل هند شبه مخدرة وتقف على باب القاعة تتحسس ذراعها .. وفخذها والحراس يدفعونها)

هند : (فى المدخل) كل جلدى الآن موجع

لم يعد فيه مكان للإبر

فلتدعنى كى أنام قد أخذت الآن حقنة

(الجندى يدفعها من المدخل فتدخل وتمشى فى حذر وخوف إلى المنصة)

هند : الوحدة تستأنس بيتاً هجرته الحكمة من زمن

والأشباح تعود الآن .. تعود .. تعود على وهن

أشباح زمان كان القلب فيه يحلم بالمستقبل   المستقبل ! المستقبل !

والمستقبل فى كهف يعوى فيه الذئب الأسود

أعرف أن الزمن الأسود حل   بيتى تهجره الحكمة !

امرأة : أنا خائفة منها

الرئيس : أنت .. هل عذبت .. قولى ..

(هند لا تجب وتتثاءب)

الرئيس : (ثائراً) فلتجيبى ..

هند : (بضعف شديد) إننى أعطيت حقنة   حقنة الأفيون

ممثل النيابة : (محتداً)

إن ما فى محضر التحقيق لم يُملَ عليك أو يُحَوَّر

كل أقوالك فيه لم تكن تحت تهديد ولا ضغط ولا أى مؤثر .

(هند لا ترد ، فيأتى ضابط من المظليين فيمسك بهند ويشدها إلى المنصة فتضطرب ويزداد فزعها وتتراجع إلى الوراء)

فيرجيه : ما الذى يعنيه هذا ؟ فلتدعها

الضابط : (لفيرجيه متحدياً) أنت لا تأمرنى أنت أتفهم

هند : (تستدير وتجعل يدها كمدفع) تك ... تك ... تك

امرأة : أخرجونى .. إنها شئ مخيف بشع لا يحتمل

الرئيس : (لهند) انطقى .. من أنت ... هل أصبحت عجماء

هند : أنا .. ؟ (فجأة تبكى وتصرخ) لست إلا عاهرة

ممثل النيابة : فلتخرجوها .. هذه المجنونة

ضابط من المظليين : (ضاحكاً) المجنونة الحسناء

**الرئيس : يكفى الذى قالته فى التحقيق ، فاقرأ محضر التحقيق
كيف تشاء**

(يشير بيده لضابط فيشدها إلى الخلف .. وهى تنتفض وقد ارتفع صوتها بنوع من التشنج وهى تنظر إلى جميلة ، دائماً .. الضابط يشدها ولكنها تتشبث بمكانها)

هند : لا ... إن صاحبتى جميلة طاهرة هى بائسة

هى لم تكن تدرى بشئ

لم يقدروا أبداً على إيذائها فى عرضها

ليست بجيفة تتساقط الغربان فوق حطامها

الله أكبر ! هذا النداء الحر يقبل من بعيد

يتسلق الجدران فى زحف مظفر

الله أكبر !! هذا النداء الحر يدفع موكب الفجر الجديد

ليضئ أعماقى التى غشى الظلام كهوفها

(ضابط آخر يزحزحها الآن من مكانها)

الله أكبر ! إنى لأقسم أن صاحبتى جميلة ...

وارحمتا لك يا جميلة لم تقتلى أحداً ولكن عذبوكِ

وكتمت حبك فى الضلوع فشوهوك لكنهم لم يقهروك

(تستدير لهم بحركة من يدها تقلد بها حركة المدفع الرشاش)

تك ... تك ... تك

هذا سيسحقكم جميعاً

(ما زال يدفعها الحراس بقوة وهى تصرخ)

يا أيها الفرسان من كل الجبال تقدموا ، وتقدموا

يا أيها الشجعان فى جوف الليالى السود لا تستسلموا

وتقدموا ... وتقدموا

بشذى جزائرنا الجديدة . بالنضارة . بالربيع

لتبددوا سحب الدموع ولتمسحوا كل الدموع

(تبكى ، ويسمع رجع بكائها من البهو الخارجى)

ممثل النيابة : لا تأبهوا لصراخها الملتاث ، فهى ممثلة

فيرجيه : (بتأثر) لكنها مجنونة حقاً

الرئيس : أجل مجنونة ، وممثلة

فيرجيه : مع كل ذلك ، فهى عندك عاقلة

لمدىً يؤهل رأسها للمقصلة

الرئيس : لنعد إلى الموضوع .. لسنا الآن نبحث رأسها ..

فيرجيه : يا سيدى مهلاً .. أليس كلامها

هو كل ما عند النيابة من أدلة

وبمقتضى هذيانها هذا تطالبكم برأس جميلة ..

أنا لا أصدق

لِمَ لا تعالـَج هذه المسكينة الحيرى ؟! لماذا لم يحقـَق

مع من رمى المسكينة الحسناء فى هذا الخضم

عضو اليمين : ماذا يهمك أنت من هذا .. أجئت لتتهم ؟

المحامى : لِمَ لا تدافع أنت عنها يا أخى ، وأنا أدافع عن جميلة

فيرجيه : يا سيدى .. لا تبتسم !

عضو اليمين : لم يبق إلا شاهدو النفى

(عضو اليسار ما زال يهمس)

عضو اليمين : هم لم يجيئوا بعد فلنستغن عنهم

عضو اليسار : (بصوت مرتفع) لا .

فيرجيه : (متأملاً) بديع

الرئيس : (مقاطعاً) الآن نعلن الاستراحة سنتيح لك

ما شئت من فرص لتدرس محضر التحقيق

فادرس كيف شئت

حتى يوافينا الشهود

فيرجيه : أشكرك

(الكاتب يسلم فيرجيه محضر التحقيق . ينهض أعضاء المحكمة ويدخلون من الباب الذى خلف المنصة)

جميلة : (لنفسها) ماذا عسى يخفى التظاهر بالسماحة

عزام : (يعلن للناس) خلال فترة الاستراحة

سيعاود البوليس تفتيش المكان

من أجل تأمين الحضور   فتفضلوا فى الردهة الكبرى

(يبدأ الناس فى الخروج وينتظر فيرجيه قليلاً ثم يشق طريقه بينهم فى الزحام . بينما يفتح الباب الذى فى قفص جميلة ويأخذها الحراس إلى الداخل ويغلقون الباب .. القاعة تخلو شيئاً فشيئاً والناس يتحدثون وهم خارجون .. الحديث يدور فى أماكن متفرقة)

امرأة : ليتنا كنا سهرنا فى الكلوب

ضابط : كان أفضل

مستوطن : أنا أيضاً متعب الأعصاب من هذا المحامى

امرأة : أنا لا يعجبنى عضو اليسار

رجل : (لفيرجيه وهو يمر) خائن .. أصفر ..

ضابط : (لفيرجيه) أنت معدوم الضمير ..

رجل : (يمسك بفيرجيه متحرشاً) أنا لا يعجبنى شكلك يا أنت

رجل آخر : (يخرج مسدسه) قل لنا أين تنام الليل .. قل ..

فى أى فندق

أنت لن تنجو من هذا المسدس !

(امرأة على المدخل تمسك بفيرجيه متحدية)

امرأة : قل لنا بالحق .. كم يدفع ناصر

(ضحك)

(فيرجيه يتملص منها وينحنى أمامها بأدب)

فيرجيه : أنا لا أفهم هذا .. أنت أدرى بشئون الدفع يا سيدتى

(فيرجيه يخرج الآن . عزام يدفع برفق إلى الخارج من بقى فى القاعة . يخرج الجميع ويبقى جاسر وحده بملابس ضابط فى اللفيف الأجنبى)

مستوطن : (لجاسر) ما الذى يبقيك أنت ؟

(يخرج المستوطن وهو ينظر لجاسر بريبة)

عزام : (لجاسر) انتظرنى ها هنا .. لا تتحرك

(يذهب ليحكم إغلاق باب القاعة)

جاسر : أين تمضى أنت ؟

عزام : الآن ... ستدرك

جاسر : إنهم سوف يذبحونها لا محالة !

(عزام يذهب الآن إلى قفص الاتهام ليدخل من الباب الذى فى القفص وهو الباب الخاص بجميلة)

عزام : ها هنا يذبحون حتى العدالة

(يدخل عزام ويبقى جاسر وحده وسط انفعالاته)

جاسر : إن يوماً تموت فيه ، ليومٌ مستباحٌ لن تشرق الشمس بعده

وهو يوم تموج فيه الليالى كالثكالى ، ويفقد الكون رشده

أى عصر هذا الذى يهدر الإنسان فيه ويُلقَـى إلى الكواسر وحده

إيه يا قلب قد حلمنا طويلاً بزمان نعيش فيه هَوَانا وصِبَانا

وكتمنا الذى نعانى من الوجد ، وعشنا فى حلمنا وجوانا

أى حلم مهوش عربد الآن أمامى كراقصات الجحيم ؟

أربدت حولى الحياة وشلت فوق دوامة الجنون العظيم

(يتلوى فى أزمة)

الزهور السوداء ، والموكب الساخر ، والقرد ، والسلاحف الضاحكاتُ

ونهود تهتز فوق خصور طوقتها أظافر مشرعاتُ

وجبال تمور فوق بحار من دخان تلفه ظلماتُ

وانقضاض السماء بالحواميم والنار والهول والمعادن المصهورة

والثعابين ينطلقن من الأغوار يرقصن رقصة مذعورة

والرياح الصماء تعول فى البعد وفى القلب ضجة وعواء

وضلوع ممزقات يسيل الفجر منها ، ولا تسيل الدماء

وهزيم المأساة يزحف كالطوفان فى هدأة الدجى المترامى

أليل الليل ، غير أن شعاع الفجر ما زال يُرتجى فى الظلام

(يرتمى منهكاً على مقعد ورأسه فى يديه بينما يدخل عزام يسند جميلة من الباب الذى فى قفص الاتهام . عزام يغلق الباب بإحكام ، جاسر يشعر بحركة دخول عزام فينتفض واقفاً ويتماسك)

عزام : يا صديقى

جاسر : (مندفعاً لجميلة) وأخيراً ها أنا ألقاك

جميلة : من أنت ؟

جاسر : أنا ؟

جميلة : يا إلهى !! . أنت جاسر !

كيف هذا ؟ كيف أقبلت إلينا ها هنا

عزام : اسأليه كيف غامر ؟!

جميلة : (فى اضطراب ملحوظ) يا صديقى .. أيها القائد .. يا ..

جاسر : (لعزام) لا تقل هذا

جميلة : أجل لم تعد ترعى أمانك

عزام : ذلك المستوطن الأحمق لما شاهدك

لاح فى نظرته شك مخيف

جاسر : (لجميلة) أنت يا أخت هنا أروع من كل الأساطير

جميلة : أنا ؟

جاسر : هل تخافين من الموت ؟ .

جميلة : لكم كنت أخافه ! غير أنى الآن لا أملك إلا الابتسام

وعزائى أنكم لا تضعفون بل تعدون ليوم الانتقام

وستحيا أنت من أجلى .. من أجل الجزائر

إنهم لن يعرفوا أين تكون

أنتم راضون عنى لم تزالوا .. فاغفروا سقطة هند ..

أنت تعرف أنها جنت من التعذيب

جاسر : أعرف

جميلة : يا صديقى كدت أنسى ..

أتراهم عرفوا خطة تهريب السلاح

عزام : لا ..

جاسر : (لجميلة) لِمَ جازفتِ بنفسك ؟

جميلة : لا تلمنى الآن ، لو كنتُ تهاونتُ قليلاً لوقعتَ
بالذى تحمله من خطط ! لم يزل عزام حراً
لم يزل عمار حراً لم يزل جاسر حراً ليقود المعركة !
(لعزام) كيف حال الطالبات ..
من ترى منهن قد حل مكانى ..

عزام : (بأسى) منى ! إنها تحمل مسئوليتك ..
كل مسئوليتك !
ولقد أوشك فجر النصر أن يشرق يا أخت ..

جاسر : (لجميلة بحزن) ولكن أين أنت ؟!

عزام : (كأنما يغير الموضوع) نحن حاصرناهم الآن
وهم فى موقف ضنك شديد !

(جاسر يكتم انفعالاته بصعوبة فينحنى أمام القفص واجماً)

جميلة : (لجاسر) إننا لا ننحنى يا قائدى الطيب حتى للعواصف

أنت أيضاً يا أخى لا تنحنى إنه العار إذا نحن انحنينا

عندما أسقط يا جاسر لا تركع على قبرى

جاسر : لا تقوليها .. أسكتى .. يا جميلة

عزام : (يحاول أن يمزح) أنتما الآن وحيدين

ولسنا بعد فى التنظيم نعمل .

فليبح كل بما فى قلبه .. انطق .. ما دهاك

جميلة : لم يزل صاحبنا عزام يضحك !

عزام : بح لها بالهوى المخنوق فى أعماق صمتك

جميلة : فى ابتساماتك يا عزام طعم الدمع ..

عزام : بوحى بهواك ..

جميلة : إن ما فى القلب يا عزام ليس الحب ،

بل شئ جليل ليس يوصف

إنه أقوى من الحب ، من الموت ، وأقوى من حياتى نفسها
لو كنت تعرف !

عزام : إنه نوع من الحب خطير !
(أخيراً لا يفلح فى انتزاع الضحك فيستدير كأنه يدارى دموعه)
يا إلهى ما الذى يجعلنا نحن فى قبضة مأساة كهذه !

جاسر : لِمَ لا يقوى على إنقاذها شئ ؟
لماذا لم تعد تقوى على إنقاذها كل الجهود ؟
لِمَ لا تـُنتـَزع الطفلة من أظفارهم

جميلة : أترانى طفلة ما زلتُ .. جاسر
فى غد .. عندما يرتفع الزيتون فى خضرته
عندما ترتفع الراية فى أرض الجزائر
عندما تنتصر الثورة .. فابكونى ، وقولوا : لم تمت

عزام : سنقول : انتصرت !

جاسر : قسماً إن غالك السفاح فالعصر زرىّ وحقير
وهزيل مستباح العِرض مثلوم الضمير
لا وعينيك وفى عينيك أحلام نبيلة

لا .. وآلام البطولة

لن تموتى يا جميلة لن تموتى يا جميلة

(جرس من الداخل .. عزام يتجه إلى باب القاعة)

عزام : أسرعا .. لا وقت حتى للوداع

جميلة : عجباً .. لا وقت حتى للوداع !

عزام : (يدفع جاسر) أسرع الآن

جاسر : (بحزن هائل) الوداع

(يبتعد ليخرج من باب القاعة)

جميلة : يا إلهى ! هكذا ؟ حتى الوداع ؟

عزام : أسرع .. إنهم آتون خذ سيارتى .. إنها مفتوحة

خذها وأسرع

(عزام يفتح باب القاعة الآن .. وقد بدأ الناس يدخلون . جاسر يخرج . والمستوطن الذى كان قد لمح جاسر وهو يتخلف فى القاعة قد أقبل الآن وهو ينظر إليه مرة أخرى .. ثم يخرج وراءه ومعه أحد الضباط والناس يأخذون أماكنهم فى القاعة)

صوت : محكمة ..

(يدخل فيرجيه .. ثم تدخل هيئة المحكمة)

الرئيس : (لفيرجيه) لماذا تطلب يا أستاذ

شهوداً ليسوا موجودين وتعطلنا ؟

فيرجيه : كيف ؟

الرئيس : الشاهد جان انتحر

جميلة : المسكين ! لقد قتلوه إذن !

الرئيس : وصديقك صاحب هذا التقرير

فيرجيه : أمات كذلك منتحراً

عضو اليسار : بل بالسكتة

فيرجيه : لماذا ينتحرون جميعاً أو تدهمهم تلك السكتة !

معنى هذا يا سادة

ألا نستدعى أحداً بعد هنا كى يدلى بشهادة

فسيُقتـَل إما منتحراً ، أو بالسكتة !

عضو اليسار : (بعصبية) مهما يكن الأمر ، فلا داعى لنقاش آخر

فالتقرير المزعوم يهدره تزوير ظاهر فلتلق دفاعك

جميلة : (تبتسم ساخرة لعضو اليسار) وكنت أخالك أنت أقلهم عطشاً لدمى

عضو اليسار : لا تبتسمى ! لسنا فى مأدبة عشاء

جميلة : بل مأدبة للديدان إذ يقتات الدود الآن

بأروع شئ فى الإنسان

فيرجيه : دعوها تسخر مما تلقى

الرئيس : لا تضع الوقت هباء ، إن لدىَّ هنا اعترافاً منها

جميلة : (منفجرة) هذا كذب . المحكمة العليا تكذب

فيرجيه : لو أن لديكم تلك الورقة ما وُجِـدَت إلا فى المحضر ..

هذا شئٌ لا يُتَـصَوَر أنا أطعن فيها بالتزوير

جميلة : لقد زيفتم فى اسمى .. وأنا فى سجنى أتعذب !

فلئن زيفتم أقوالى أو توقيعى .. هل أستغرب !

عضو اليسار : (يعطى الكاتب ورقة) اقرأ هذا

السكرتير : (يقرأ) أنا أعترف ..

جميلة : (منفجرة) لا

عضو اليسار : (للكاتب) اقرأ ...

فيرجيه : (معترضاً) نحن طعنا بالتزوير

وعليكم تحقيق الطعن .

وعلينا أن نعرف من هو هذا الكابوس الخانق

من قتل شهود النفى ومن يعبث بحقوق الإنسان ؟!

عضو اليمين : المتهمة معترفة فلتسكت أنت

الرئيس : إلقِ دفاعك يا أستاذ أو اذهب ، قد ضيعت الوقت

فيرجيه : إن كنتم قد قررتم أن يهدر كل ضمان

لتنالوا رأس جميلة ...

عضو اليسار : (يقاطعه بحدة) فلتسكت أنت الآن .

(ثم لمحاميها الآخر) تفضل يا أستاذ ..

فيرجيه : لكنكم بسلوككم هذا تهينون الحضارة والعدالة والحياة

وستغرسون مرارة أبدية فى كل قلب

وتؤلبون تجاهنا أطفال أفريقيا وآسيا ، والعرب

ماذا تراهم يذكرون

عنا إذا كبروا غداً .. ماذا تراهم يذكرون ؟

أنتم بهذا تغلقون

فرص التسامح فى قلوب شبابهم وشبابنا

وتلطخون جبيننا

وتشوهون تراثنا

أصوات : فلتقتلوه .. لتقتلوا هذا العميل

فيرجيه : لا تمزجوا بدم الضحايا ذكريات الناس عنا

لا تنشبوا أظفاركم فى قلب طالبة صغيرة

ألأنـها عملت لكى تحيا كما حلمت ، ستقتل ؟

ألأنـها ترسى التقاليد العريقة فى النضال الحر ، تقتل ؟

ألأنـها رفضت مظالمكم ، ستقتل ؟

الرئيس : (ثائراً للضباط) فلتسكتوه .. فلتخرجوه الآن رغماً عنه .

(يحيط به بعض الضباط ويجرونـه بقسوة)

فيرجيه : فلتحترم شيخوختى لسنا هنا فى غابة

ضابط : أخرج وإلا سِرتَ مشدوداً إلى ذيل الحصان

فيرجيه : فى أى عصر أنتم ؟ هل أنتم أبناء هذا العصر حقاً ؟

أنا سوف أوقظ فى فرنسا من له قلب شريف

ليرى الجريمة ...

أصوات : (تقاطعه بحدة) فلتمت

فيرجيه : ولكى يرى الشعب الفرنسى المضلـَّل

كم من خطايا باسمه ارتكبت .

صخب شديد : ليقتل

فلتقتلوها ..

(ويخرج وراءه ضابطان بينما القضاة يتشاورون والناس يتهامسون فى القاعة وجميلة تنظر وتبتسم)

الرئيس : هذا محاميك اللعين قد انسحب ولديكِ آخر

عضو اليسار : ليقم محاميك الأصيل

جميلة : (ساخرة) قل العميل

يا سادتى لا ترهقونا بالأباطيل السخيفة .. والمهازل

فلقد حكمتم منذ حين

الرئيس : هو ذا ... سنحكم .

عضو اليسار : أنت طبعاً تعرفين

جميلة : هل تملكون سوى دمى

المحامى : أوَ لا نقول الكلمتين

عضو اليمين : قل

جميلة : (لمحاميها ساخرة) لا ... يا غراب البين

(ثم للمحكمة) يا قوم لا داعى للاستمرار فى تمثيل تلك المهزلة

إنى لأعرف أنه الإعدام تحت المقصلة

لكنكم لن تقتلوا إلا فتاة

ستلطخون بلادكم بدمائها أبد الحياة

أما الجزائر فهى تمضى فى الطريق لتنتصر   وستنتصر

سنظل نقتحم الخطر   وسننتصر

وسيشرق الفجر الجديد من الدم

الرئيس : أنا قلت لا تتكلمى

جميلة : هل تملكون سوى دمى   فلتأخذوه ... لتشربوه

الرئيس : الحكم بالإعدام رمياً بالرصاص

أصوات : تحيا العدالة .. يحيا القصاص

جميلة : (رافعة رأسها) تحيا الجزائر

أصوات : لتمت سريعاً .. تحيا العدالة .

(أعضاء المحكمة يتهامسون)

جميلة : سأظل أحلم بانبثاق الفجر من جوف الظلام

سأظل أحلم بالسلام

سأظل أحلم بالنسيم العذب فى جوف الرياح العاتيات

سأظل أحلم بازدهار الكرم فى ودياننا المتراميات

سأظل أحلم بانتصار الجيش ، بالتحرير بالزمن السعيد

إنى أرى فجر الزمان الحلو يقبل من بعيد

سأظل أحلم بالصحاب   وبجاسر المرجو يقبل فى الركاب

الآن .. هل سقط الحجاب

وأنا أمام الموت هل برح الخفاء ؟

سأظل أحلم بانتصارات تثير الكبرياء

بسعادة القلب الذى حرم السعادة طول عمره

وسيحمل القلب المعذب حين يسكت كل سره

وأنا أغنى لليالى الباسمة

وأظل أنشد للحياة القادمة

الرئيس : (متهيئاً للوقوف) لن تعلن الأسباب إلا بعد غد ..

جميلة : (ساخرة) لِمَ تعلن الأسباب فى حكم كهذا ؟

إنما هى واضحة

لِمَ لا يدبجها المحامى ؟

(للمحامى ضاحكة) إنى وجدت وظيفة لك مربحة

المحامى : هل تضحكين ؟

الرئيس : أولى بمثلك أن تولول باكية

جميلة : (ساخرة أيضاً) أحكم علىَّ بأن أولول باكية

الرئيس : لا تضحكى فالأمر جد

جميلة : (تضحك) يا سيدى .. فلتحترس

قد مال ميزان العدالة وهو يهوى فوق رأسك

(تدوى رصاصة فإذا الرئيس يضطرب وينظر إلى الخلف كأنما ليتأكد من ثبات الميزان وجميلة تضحك بينما تدوى طلقات رصاص فى خارج القاعة ويسود الهرج ويبدو فى البهو زحام شديد ويضطرب القضاة ويدخلون ويجرى بعض الناس ويدخلون وراءهم)

عزام : (بلهجة آمرة) لا تخرجوا فلتقعدوا .. كل مكانه

إنى أنا المسئول عن أمن الجميع ..

جميلة : هذا هو الصوت الجسور العذب يقتحم الخطر

يتسلق الجدران بالأمل العظيم المنتظر .

(يخرج عزام من الباب مندفعاً بينما يقعد الباقون فى القاعة فى رعب وترقب)

أصوات من الخارج : الذئب جاسر لا ترهبوه لقد وقع ..

- أنا صاحب المليون وحدى

- بل لى أنا نصف المكافأة العظيمة .. إننى أرشدت عنه

(زحام من الضباط والمستوطنين يدفعون جاسر بوحشية إلى داخل القاعة وعزام يحاول إبعادهم عنه .. ويدخل جاسر ممزقاً محاصراً والجراح فى كتفه)

امرأة : (لجميلة) فلتضحكى أيضاً .. فها هو عاشقك

فتمتعا بالحب تحت المقصلة

مستوطن : هذا ختام رائع للمهزلة

عزام : (يدفع الناس) فلتخرجوا .. ودعوه لى .. فلتخرجوا

(جميلة تندفع من مكانها وتصرخ صراخاً فاجعاً)

جميلة : أسفاه .. هل قبضوا عليك ؟

وإذن فقد حكموا علىَّ الآن بالإعدام حقاً .

(تبكى فى انهيار مفاجئ وعزام يدفع بقية الناس ليخرجوا ويغلق الباب وراءهم)

عزام : فلتخرجوا .. ودعوه لى ..

امرأة : هذا رهيب

(خلت القاعة الآن إلا من عزام الذى يقف مذهولاً مستنداً إلى حائط وجميلة التى تحاول أن تمشى إلى جاسر وهى فى قفص الاتهام وجاسر الذى ارتمى منهكاً)

جميلة : الآن .. أشعر أننى حقاً أموت

جاسر : عزام .. هل قبضوا على أحد سواى من الصحاب الآخرين ؟

عزام : هل كان غيرك ها هنا أيضاً ؟

جاسر : أجل .. كنا ثلاثة   كنا سننقذها .

عزام : وكيف حسبت أنك تستطيع ؟

لِمَ لم تشاورنى كما كنا   تعودنا

جاسر : كانت مغامرة أردت بها مفاجأة الجميع

كنا سنختطف المجاهدة العزيزة ثم نهرب

جميلة : الجرح ينزف فلتكف عن الكلام

عزام : (بمرارة) وسيتركون الجرح ينزف ..

جاسر : عزام .. هل قبضوا على أحد سواى ؟

عزام : لا ... لم يقع أحد سواك ..

جاسر : الحمد لله ..

جميلة : (بأسى هائل) يا ليتهم قبضوا على كل المدينة ما عداك

أيكون حقاً كل ذاك ؟ أنعيش فى الكابوس ؟!

جاسر : لا ... بل .. إنه حلم سعيد

جميلة : لا لا تقل لى الآن هذا .. إنهم سيعذبونك

وسيركلونك تحت أقدام الجنود

لا يا صديقى .. يا أخى .. يا ... (مستدركة) أتصير أنت

بكبريائك بالذى فى القلب منك وبكل أحلام الحياة ،

بحكمتك وبرأسك العالى الشموخ بصلابتك ..

وبكل إنسانيتك

أتصير أنت بكل هذا .. تحت أقدام الجنود ؟

عزام : نهباً لأحذية الجنود ؟!

وسيقتلونك بعد هذا ... لا

(يغلبه انفعاله فيبكى وهو يرتمى على جاسر ليعانقه)

جاسر : هذا هو الثمن الذى لابد منه لمولد الزمن الجديد

جميلة : إنا دفعنا فوق ما يتخيل العقل المحدد من ثمن ، لتظل أنت

إنا احتملنا فوق ما يتخيل الإنسان من ألم لتبقى أنت ... أنت !

عزام : ماذا أقول ؟

جاسر : اذهب سريعاً أنت يا عزام .. قد يتبينون صِلاتنا ..

لتظل ضحكتك الوضيئة تحمل الأمل الوضئ لآخرين

نحن انتصرنا يا صديقى

عزام : يا صديقى .. يا أخى

جاسر : إن الذين يشكلون الفجر لا يخشون عادية الظلام

عزام : ولا يخافون الغروب

(يعانقه ثم يمشى عزام منحنياً مثقلاً)

جاسر : (كقائد) لا تحن رأسك

بلغ تحياتى لعمار وكل الأصدقاء ..

جميلة : وإلى منى والطالبات ..

عزام : إنى لأقرئك السلام .. وإلى جميلة ... الوداع !

(يسرع إلى الخارج وقد غلبه انفعاله)

جاسر : (كقائد أيضاً) ليظل رأسك عالياً نحو السماء ..

سنموت لكن لن تموت الكبرياء

(يخرج عزام)

(جاسر يتجه إلى مكان جميلة حيث تبقى هى فى مكان مرتفع خلف قضبان القفص الحديدى وهو يزحف إليها)

جاسر : إننى أبصر من طوفان هاتيك الدماء

ذهب المستقبل الزاهى يضئ

إن يكن جاسر قد ضاع ..

فكم من جاسر سوف يجئ

وغداً تنبت مليون جميلة

(جاسر الآن يصل إليها وهى تحاول أن تمسك بيده)

جميلة : نحن أصبحنا وحيدين .. كما كنا قديماً ..

جاسر : هكذا نحن تعرفنا .. وأصبحنا وحيدين معاً

تحت سقف واحد

جميلة : نحن كافحنا معاً ..

وعرفنا الـ ...

(تضطرب وتخجل ثم تستمر) وعرفناه معاً ، وكتمناه معاً

غير أنا ما تحملنا معاً ..

جاسر : أسكتى .. لا تقولى بعد

جميلة : إن الوقت فات

جاسر : لم يكن جاسر إلا رجلاً كملايين الرجال

رجلاً يعمل من أجل الحياة

فإذا مات .. إذا ما مات جاسر

سيقود الركب آلاف سواه

جميلة : أيها الأحياء فى عصر الحقوق البشرية

أوقفوا تلك المآسى الهمجية أوقفوا هذا العذاب

نحن من لحم ودم لا رموز من رخام

نحن لا نبحث عن مجد البطولة ..

إنما نطلب أن نحيا كما يحيا سوانا

جاسر : أذكروا أن جميلة لم تكن إلا فتاة كملايين سواها

لم تكن تحلم إلا أن تعيش كملايين البنات

ثم تغدو بعد هذا زوجة تمنح الأرض صغاراً طيبين مثلها

جميلة : لم يكن جاسر أيضاً

غير إنسان يحب الخير والعدل ويهوى أن يعيش

فى سلام كملايين الرجال ثم يغدو بعد هذا والداً

يمنح الأرض صغاراً طيبين مثله

(صوت انفجار من بعيد)

جاسر : اسمعى ... آه ... ما أروع هذا كله ...

إنهم إخواننا

جميلة : ذلك الصوت الجسور   يتحدى كل شئ

جاسر : إنه عاد يدوى من جديد يحمل الرعب إلى أعدائنا

جميلة : إنه صوت الجزائر   سيدوى دائماً

يحمل الأمن إلى أطفالنا

جاسر : إنه وقع خطى المستقبل الزاحف يأتى من بعيد

التحيات إليكم يا صحاب

اضربوا أيضاً لكى تستخلصوا العالم من هذا العذاب

(الجنود يقتحمون ويفرقون بينهما ويقتادون كلاً على حدة)

يا إلهى ... هكذا نمضى سريعاً .

جاسر : أتركونا نتصافح

جميلة : الوداع ... يا ..

جاسر : الوداع

جميلة : والتحيات إلى الإنسان فى كل مكان

(جنود يجرون جميلة من قفص الاتهام وصوتها يختلط بصوت جاسر)

جاسر : وسلام لأخى الإنسان فى كل مكان ... وزمان

((ستار الختام))

نبذة عن جميلة بوحيرد

جميلة بوحريد (ولدت عام 1935 في حي القصبة، الجزائر العاصمة) هي مجاهدة جزائرية من أكبر المناضلات الائي ساهمنة بشكل مباشر في الثورة الجزائرية على الاستعمار الفرنسي لها، في منتصف القرن الماضي.

حياتها :

ولدت جميلة من أب جزائري مثقف و أم تونسية و كانت البنت الوحيدة بين أفراد أسرتها فقد أنجبت والدتها 7 شبان، كان لوالدتها التأثير الأكبر في حبها للوطن فقد كانت أول من زرع فيها حب الوطن وذكرتها بأنها جزائرية لا فرنسية رغم سنها الصغيرة آنذاك واصلت جميلة تعليمها المدرسي ومن ثم التحقت بمعهد للخياطة والتفصيل فقد كانت تهوى تصميم الأزياء. مارست الرقص الكلاسيكي وكانت بارعة في ركوب الخيل إلى أن اندلعت الثورة الجزائرية عام 1954 حيث انضمت إلى جبهة التحرير الوطني الجزائرية للنضال ضد الاحتلال الفرنسي وهي في العشرين من عمرها ثم التحقت بصفوف الفدائيين وكانت أول المتطوعات لزرع القنابل في طريق الاستعمار الفرنسي، ونظراً لبطولاتها أصبحت المطاردة رقم 1. تم القبض عليها عام 1957 عندما سقطت على الأرض تنزف دماً بعد إصابتها برصاصة في الكتف وألقي القبض عليها وبدأت رحلتها القاسية من التعذيب وجملتها الشهيرة التي قالتها آنذاك" أعرف أنكم سوف تحكمون علي بالإعدام لكن لا تنسوا إنكم بقتلي تغتالون تقاليد الحرية في بلدكم ولكنكم لن تمنعوا الجزائر من أن تصبح حرة مستقلة". بعد 3 سنوات من السجن تم ترحيلها إلى فرنسا وقضت هناك مدة ثلاث سنوات ليطلق سراحها مع بقية الزملاء عام 1962.

قصة نضالها ضد الاستعمار :

كان الطلاب الجزائريون يرددون في طابور الصباح فرنسا أمُنا لكنها كانت تصرخ وتقول: الجزائر أمُنا، فأخرجها ناظر المدرسة الفرنسي من طابور الصباح وعاقبها عقاباً شديداً لكنها لم تتراجع وفي هذه اللحظات ولدت لديها الميول النضالية.
انضمت بعد ذلك إلى جبهة التحرير الجزائرية للنضال ضد الاستعمار الفرنسي ونتيجة لبطولاتها أصبحت الأولى على قائمة المطاردين حتى أصيبت برصاصة عام 1957 وألقي القبض عليها.

من داخل المستشفى بدأ الفرنسيون بتعذيب المناضلة، وتعرضت للصعق الكهربائي لمدة ثلاثة أيام كي تعترف على زملائها، لكنها تحملت هذا التعذيب، وكانت تغيب عن الوعي وحين تفيق تقول الجزائر أُمُنا. حين فشل المعذِّبون في انتزاع أي اعتراف منها، تقررت محاكمتها صورياً وصدر بحقها حكماً بالإعدام عام 1957، وتحدد يوم 7 مارس 1958 لتنفيذ الحكم، لكن العالم كله ثار واجتمعت لجنة حقوق الإنسان بالأمم المتحدة، بعد أن تلقت الملايين من برقيات الاستنكار من كل أنحاء العالم. تأجل تنفيذ الحكم، ثم عُدّل إلى السجن مدى الحياة، وبعد تحرير الجزائر، خرجت جميلة بوحيرد من السجن، وتزوجت محاميها الفرنسي.

من الأشعار التي قيلت فيها:

قالوا لها بنت الضياء تأملي ما فيك من فتن ومن أنداء

سمراء زان بها الجمال لوائه واهتز روض الشعر للسمراء

ونظم فيها الشاعر الكبير نزار قباني قصيدة شهيرة . كما أخرج يوسف شاهين فيلما عنها بعنوان (جميلة) عام 1958 من بطولة ماجدة .. وأخرج المخرج الإيطالي جيلو بونتيكورفو عام 1966 فيلما جزائريا بعنوان (معركة الجزائر) ذكرها فيها .

قصيدة جميلة بوحيرد

نزار قباني

1

الاسم : جميلةُ بوحَيرَدْ

رقمُ الزنزانةِ : تِسعُونا

في السجن الحربيِّ بوَهران

والعمرُ : اثنانِ وعشرُونا

عينانِ كقنديلي معبَدْ

والشعرُ العربيُّ الأسوَدْ

كالصيفِ ..

كشلاَّلِ الأحزان

إبريقٌ للماءِ .. وسجَّان

ويدٌ تنضمُّ على القُرآن

وامرأةٌ في ضوء الصبح

تسترجع في مثل البوح

آياتٍ مُحزنة الإرنان

من سُورةِ (مَريمَ) ..

و(الفتَح) ...

*

الاسمُ: جميلةُ بوحيَردْ

اسمٌ مكتوبٌ باللهَبِ ..

مغموسٌ في جُرحِ السُحُبِ

في أدَب بلادي. في أدَبي ..

العُمرُ اثنانِ وعشروُنا

في الصدر استوطن زوجُ حَمام

والثغرُ الراقدُ غصنُ سَلام

إمراةٌ من قُسطنطينه

لم تعرف شفتاها الزينه

لم تدخُل حجرتَها الأحلام

لم تلعبْ أبداً كالأطفالْ

لم تُغرم في عقدٍ أو شال

لم تعرف كنساءِ فرنسا

أقبيةَ اللذَّةِ في (بيغال)

*

2

الاسمُ: جميلةُ بوحَيَردْ

أجملُ أغنيةٍ في المغرب

أطولُ نَخلَهْ

لمحتها واحاتُ المغرب

أجملُ طفلَهْ

أتعبتِ الشمسَ ولم تتعب

يا ربّي . هل تحتَ الكوكَب ؟

يوجدُ إنسانْ

يرضى أن يأكُلَ .. أن يشرَب

من لحم مُجاهِدةٍ تُصلب ..

*

3

أضواءُ (الباستيلِ) ضئيله

وسُعالُ امرأةٍ مُسلُوله ..

أكلتْ من نهديها الأغلال

أكلَ الأنذال ..

(لاكوستُ) وآلافُ الأنذال

من جيش فرنسا المغلوبه

انتصروا الآن على أنثى ..

أنثى .. كالشمعة مصلوبه

القيد يعضُّ على القدمَين

وسجائرُ تُطفأ في النهدين

ودمٌ في الأنفِ ..

وفي الشفتين

وجراحُ جميلةَ بوحيرد

هيَ والتحريرُ .. على موعِد ..

*

مقصلةٌ تنصبُ .. والأشرار

يلهونَ بأنثى دون إزار

وجميلةٌ بين بنادقِهم

عصفورٌ في وسط الأمطار ..

الجسدُ الخمريَّ الأسمر

تنفضُهُ لمساتُ التيَّار

وحروقٌ في الثدي الأيسَر

في الحلمةِ ..

في .. في .. يا للعار ..

*

4

الاسمُ: جميلةُ بوحَيردَ

تاريخٌ ترويه بلادي

يحفظُهُ بعدي أولادي

تاريخ امرأة من وطني

جلدت مقصلة الجلاَّدِ ..

إمرأةٌ دوَّختِ الشمسا

جرحت أبعادَ الأبعادِ ..

ثائرةٌ من جبل الأطلَس

يذكرها الليلكُ والنرجس

يذكرُها .. زهرُ الكبَّاد ..

ما أصغرَ(جان داركَ) فرنسا

في جانب(جان داركَ) بلادي ..

1957

المكتوب على الغلاف الخلفى للمسرحية :

مأساة جميلة

مسرحية الشعر الحر تصف حياة الناس فى الجزائر تحت نير الإرهاب الوحشى ، وتصور مواقف رجال ونساء من الشيوخ والشباب يريدون أن يستمتعوا بالحياة الكريمة الرغدة فى أرضهم ، ولكن قوى العدوان والاستعمار تحول دون تحقيق أمانيهم برغم حقهم الطبيعى فى الأمس والمستقبل والحب والإخاء وفى الحياة الحرة العزيزة . وهؤلاء القوم أشد ما يكونون إيماناً بحقهم وبكيانهم وإنسانيتهم ويدركون أن الشر لا يولد مع البشر وإنما ينشأ فى مصلحة عارضة وطمع أعمى . فهؤلاء الجزائريون كثيراً ما يجدون أصدقاء فى صفوف الفرنسيين .

والمسرحية تصور كل هذه المواقف فى جو مملوء بالأسى والضحكات والدموع وفى حوار يخضع الشعر لحاجة الموقف المسرحى .